تفسير سورة الملك

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾﴾.

﴿١﴾ ﴿تبارك الذي بيده الملكُ﴾؛ أي: تعاظم وتعالى وكَثُرَ خيرُه وعمَّ إحسانه؛ من عظمته أنَّ بيده ملك العالم العلويِّ والسفليِّ، فهو الذي خلقه ويتصرَّف فيه بما شاء من الأحكام القدريَّة والأحكام الدينيَّة التابعة لحكمته. ومن عظمته كمالُ قدرته التي يقدر بها على كلِّ شيءٍ وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة؛ كالسماوات والأرض.

﴿٢﴾ و﴿خَلَقَ الموتَ والحياةَ﴾؛ أي: قدَّر لعباده أن يُحْيِيَهم ثم يُميتهم؛ ﴿لِيَبْلُوَكم أيُّكم أحسنُ عملاً﴾؛ أي: أخلصه وأصوبه، وذلك أنَّ الله[٢] خلق عباده وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنَّهم سيُنقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره؛ فمن انقاد لأمر الله وأحسن العمل؛ أحسن الله له الجزاء في الدارين، ومن مال مع شهوات النفس ونبذ أمر الله؛ فله شرُّ الجزاء. ﴿وهو العزيز﴾: الذي له العزَّة كلُّها، التي قهر بها جميع الأشياء وانقادتْ له المخلوقاتُ. ﴿الغفور﴾: عن المسيئين والمقصِّرين والمذنبين، خصوصاً إذا تابوا وأنابوا؛ فإنَّه يغفر ذنوبهم، ولو بلغتْ عنان السماء، ويستُرُ عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا.

﴿٣﴾ ﴿الذي خلق سبع سمٰواتٍ طباقاً﴾؛ أي: كل واحدةٍ فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها في غاية الحسن والإتقان، ﴿ما ترى في خَلْقِ الرحمٰن من

---

(١) في (أ) طمس. وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿وهو حسير﴾.

(٢) في (ب): «فإن الله».

﴿تفاوتٍ﴾؛ أي: خلل ونقص، وإذا انتفى النقص من كل وجهٍ؛ صارت حسنةً كاملةً متناسبةً من كلِّ وجه في لونها وهيئتها وارتفاعها وما فيها من الشمس [والقمر] والكواكب النيِّرات الثوابت منهنَّ والسيارات، ولمَّا كان كمالُها معلوماً؛ أمر تعالى بتكرار النظر إليها والتأمُّل في أرجائها؛ قال: ﴿فارجِعِ البصرَ﴾؛ أي: أعده إليها ناظراً معتبراً، ﴿هل ترى من فُطورٍ﴾؟ أي: نقص واختلال.

﴿٤﴾ ﴿ثم ارجِعِ البصرَ كرَّتين﴾: [و] المراد بذلك كثرة التكرار، ﴿ينقلبْ إليك البصر خاسئاً وهو حسيرٌ﴾؛ أي: عاجزاً عن أن يرى خللاً أو فطوراً، ولو حرص غاية الحرص.

ثم صرَّح بذكر حسنها، فقال:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا[1] لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

﴿٥﴾ أي: ولقد جمَّلْنا ﴿السماء الدُّنيا﴾: التي ترونَها وتليكم، ﴿بمصابيحَ﴾: وهي النجوم على اختلافها في النور والضياء؛ فإنَّه لولا ما فيها من النُّجوم؛ لكانت سقفاً مظلماً لا حسن فيه ولا جمال، ولٰكن جعل اللَّه هٰذه النجوم زينةً للسماء، وجمالاً ونوراً وهدايةً يُهتدى بها في ظلمات البرِّ والبحر، ولا ينافي إخباره أنَّه زيَّن السماء الدُّنيا بمصابيح أن يكون كثيرٌ من النجوم فوق السماوات السبع؛ فإنَّ السماواتِ شفافةٌ، وبذٰلك تحصل الزينة للسماء الدُّنيا وإن لم تكن الكواكب فيها، ﴿وجعلناها﴾؛ أي: المصابيح ﴿رجوماً للشياطين﴾: الذين يريدون استراقَ خبر السماء، فجعل اللَّه هٰذه النجوم حراسةً للسماء عن تلقُّف الشياطين أخبار الأرض؛ فهٰذه الشهب التي تُرمى من النُّجوم أعدها اللَّه في الدُّنيا للشياطين، ﴿وأعتدنا لهم﴾: في الآخرة ﴿عذابَ السعير﴾: لأنَّهم تمرَّدوا على اللَّه، وأضلُّوا عباده.

﴿٦﴾ ولهٰذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم قد أعدَّ اللَّه لهم عذاب السعير؛

---

(١) في (أ) طمس. وفي (ب) ذكر الآيات إلى قوله: ﴿ما كُنَّا في أصحاب السعير﴾.

فلهٰذا[١] قال: ﴿وللذين كفروا بربِّهم عذابُ جهنَّم وبئس المصير﴾: التي يُهان بها أهلُها[٢] غايةَ الهوان.

﴿٧﴾ ﴿إذا أُلقوا فيها﴾: على وجه الإهانةِ والذُّلِّ، ﴿سمعوا لها شهيقاً﴾؛ أي: صوتاً عالياً فظيعاً.

﴿٨﴾ ﴿تكادُ تَمَيَّزُ من الغيظِ﴾؛ أي: تكاد على اجتماعها أن يفارق بعضها بعضاً وتتقطَّع من شدة غيظها على الكفار؛ فما ظنُّك ما تفعل بهم إذا حُصِّلُوا فيها؟! ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها، فقال: ﴿كلَّما أُلقي فيها فوجٌ سألهم خَزَنَتُها ألم يأتِكُم نذيرٌ﴾؛ أي: حالكم هٰذه واستحقاقكم النار كأنكم لم تخبَّروا عنها ولم تحذَّركم النذرُ منها.

﴿٩﴾ ﴿قالوا بلى قد جاءنا نذيرٌ فكذَّبنا وقُلْنا ما نَزَّلَ اللّه من شيءٍ إن أنتُم إلَّا في ضلالٍ كبيرٍ﴾: فجمعوا بين تكذيبهم الخاص والتكذيب العامِّ بكلِّ ما أنزل اللّه، ولم يكفهم ذٰلك، حتى أعلنوا بضلال الرُّسل المنذرين، وهم الهداة المهتدون، ولم يكتفوا بمجرَّد الضلال، بل جعلوا ضلالهم ضلالاً كبيراً؛ فأيُّ عنادٍ وتكبُّر وظلم يشبه هٰذا؟!

﴿١٠﴾ ﴿وقالوا﴾: معترفين بعدم أهليَّتهم للهدى والرشاد: ﴿لو كنَّا نسمعُ أو نعقِلُ ما كنَّا في أصحاب السَّعير﴾: فنفَوْا عن أنفسهم طرق الهدى، وهي السمع لما أنزل اللّه وجاءتْ به الرسل، والعقلُ الذي ينفع صاحبَه ويوقفُه على حقائق الأشياء وإيثار الخير والانزجار عن كلِّ ما عاقبته ذميمةٌ، فلا سمعَ لهم ولا عقلَ. وهٰذا بخلاف أهل اليقين والعرفان وأرباب الصدق والإيمان؛ فإنَّهم أيَّدوا إيمانهم بالأدلَّة السمعيَّة، فسمعوا ما جاء من عند اللّه وجاء به رسولُ اللّه علماً ومعرفةً وعملاً، والأدلَّة العقليَّة المعرِّفة للهدى من الضَّلال، والحسن من القبيح، والخير من الشرِّ، وهم في الإيمان بحسب ما منَّ اللّه عليهم به من الاقتداء بالمعقول والمنقول؛ فسبحان مَن يختصُّ بفضله مَن يشاء، ويمنُّ على مَن يشاء من عباده، ويخذل مَن لا يصلُحُ للخير.

﴿١١﴾ قال تعالى عن هٰؤلاء الدَّاخلين للنار المعترفين بظلمهم وعنادهم: ﴿فاعْتَرَفوا بذَنبِهِم فسُحقاً لأصحاب السَّعير﴾؛ أي: بعداً لهم وخسارةً وشقاءً؛ فما

---

(١) في (ب): «ولهذا».

(٢) في (ب): «الذي يهان به أهله».

أشقاهم وأرداهم؛ حيث فاتهم ثواب اللّه، وكانوا ملازمين للسعير التي تستعر في أبدانهم، وتَطَّلِعُ على أفئدتهم.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ لما ذكر حالة الأشقياء الفجّار؛ ذكر وصف الأبرار السعداء[1]، فقال: ﴿إنَّ الذين يخشَوْنَ ربَّهم بالغيب﴾؛ أي: في جميع أحوالهم، حتى في الحالة التي لا يطّلع عليهم فيها إلَّا اللّه؛ فلا يقدِمون على معاصيه، ولا يقصِّرون عمَّا أمرهم به[2]. ﴿لهم مغفرةٌ﴾: لذنوبهم، وإذا غَفَرَ اللّه ذنوبَهم؛ وقاهم شرَّها ووقاهم عذاب الجحيم. ﴿ولهم أجرٌ كبيرٌ﴾: وهو ما أعدَّه اللّه لهم في الجنة من النعيم المقيم والملك الكبير واللذّاتِ المتواصلات والقصور والمنازل العاليات[3] والحور الحسان والخدم والولدان، وأعظم من ذٰلك وأكبر، رضا الرحمٰن الذي يُحِلُّه على ساكني[4] الجنان.

﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٣﴾ هٰذا إخبارٌ من اللّه بسعة علمه وشمول لطفه، فقال: ﴿وأسِرُّوا قولَكم أو اجْهَروا به﴾؛ أي: كلّها سواءٌ لديه لا يخفى عليه منها خافيةٌ، فـ﴿إنَّه عليمٌ بذات الصُّدور﴾؛ أي: بما فيها من النيَّات والإرادات؛ فكيف بالأقوال والأفعال التي تُسمع وتُرى؟!

﴿١٤﴾ ثم قال مستدلاً بدليل عقليٍّ على علمه: ﴿ألا يعلمُ مَنْ خَلَقَ﴾؛ فمن خَلَقَ الخلقَ وأتقنه وأحسنه؛ كيف لا يعلمه؟! ﴿وهو اللطيفُ الخبيرُ﴾: الذي لطف علمه وخبره، حتى أدرك السرائر والضمائر والخبايا والخفايا والغيوب، ﴿وهو الذي يعلمُ السِّرَّ وأخفى﴾، ومن معاني اللطيف أنَّه الذي يَلْطُفُ بعبدِهِ ووليِّه، فيسوق إليه البِرَّ والإحسان من حيث لا يشعر، ويعصِمُه من الشرِّ من حيث لا يحتسب، ويرقِّيه إلى أعلى المراتب بأسبابٍ لا تكون من العبد[5] على بالٍ، حتى إنَّه يذيقُه المكارِهَ

(١) في (ب): «ذكر حالة السعداء الأبرار». (٢) في (ب): «فيما أمر به».
(٣) في (ب): «واللذات والمشتهيات والقصور العاليات».
(٤) في (ب): «أهل». (٥) في (ب): «لا تكون منه».

ليوصله[١] بها إلى المحابِّ الجليلة والمطالب[٢] النبيلة.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾.

﴿١٥﴾ أي: هو الذي سخَّر لكم الأرضَ وذَلَّلها؛ لتدركوا منها كلَّ ما تعلقت به حاجتُكم من غرس وبناءٍ وحرثٍ وطرقٍ يُتَوَصَّلُ بها إلى الأقطار النائية والبلدان الشاسعة، ﴿فامشوا في مناكِبِها﴾؛ أي: لطلب الرزق والمكاسب، ﴿وكُلوا من رزقِهِ وإليه النشورُ﴾؛ أي: بعد أن تنتقلوا من هٰذه الدار التي جَعَلَها اللّه امتحاناً وبلغةً يُتَبَلَّغُ بها إلى الدار الآخرة؛ تُبعثون بعد موتكم وتُحشرون إلى اللّه؛ ليجازِيَكم بأعمالكم الحسنة والسيئة.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ [٣]فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٦﴾ هٰذا تهديدٌ ووعيدٌ لمن استمرَّ في طغيانه وتعدِّيه وعصيانه الموجب للنَّكال وحلول العقوبة، فقال: ﴿أأمنتُم مَن في السَّماء﴾: وهو اللّه تعالى العالي على خلقه، ﴿أن يخسِفَ بكم الأرضَ فإذا هي تمورُ﴾: بكم وتضطربُ حتى تَهْلِكوا وتَتْلَفوا[٤].

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿أم أمنتُم مَن في السماء أن يرسلَ عليكم حاصباً﴾؛ أي: عذاباً من السماء يحصِبُكم وينتقمُ اللّه منكم، ﴿فستعلمون كيف نذيرِ﴾؛ أي: كيف يأتيكم ما أنذرتْكُم به الرسل والكتب؛ فلا تحسَبوا أنَّ أمنكم من اللّه أن يعاقِبَكم بعقاب من الأرض ومن السماء ينفعُكم، فستجدون عاقبة أمرِكم سواءً طال عليكم الأمدُ[٥] أو قَصُرَ؛ فإنَّ مَن قبلكم كذَّبوا كما كذَّبتم، فأهلكهم اللّه تعالى؛ فانظُروا كيف إنكارُ اللّه عليهم؛ عاجلهم بالعقوبة الدنيويَّة قبل عقوبة الآخرة؛ فاحذَروا أن يصيبَكم ما أصابَهم.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾.

---

(١) في (ب): «ليتوصل».
(٢) في (ب): «والمقامات النبيلة».
(٣) في (أ) إلى قوله: (فكيف كان نكير). وفي (ب) ذكر الآيات.
(٤) في (ب): «حتى تتلفكم وتهلككم».
(٥) في (ب): «الزمان».

﴿١٩﴾ وهٰذا عتابٌ وحثٌّ على النظر إلى حالة الطير التي سخَّرها اللّه وسخَّر لها الجوَّ والهواء؛ تصفُّ فيه أجنحتها للطيران وتقبِضُها للوقوع، فتظلُّ سابحةً في الجوِّ متردِّدة فيه بحسب إرادتها وحاجتها، ﴿ما يمسِكُهُنَّ إلَّا الرحمٰنُ﴾: فإنَّه الذي سخَّر لهنَّ الجوَّ وجعل أجسادها وخلقتها[1] في حالة مستعدةٍ للطيران؛ فمن نظر في حالة الطير واعتبر فيها؛ دلَّته على قدرة الباري وعنايته الربانيَّة، وأنَّه الواحدُ الأحدُ الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له. ﴿إنَّه بكلِّ شيءٍ بصيرٌ﴾: فهو المدبِّر لعباده بما يليق بهم وتقتضيه حكمته.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿٢٠﴾ يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره، المعرضين عن الحقِّ: ﴿أمّن هٰذا الذي هو جندٌ لكم ينصُرُكم من دونِ الرحمٰن﴾؛ أي: ينصُرُكم إذا أرادَ الرحمٰن بكم[2] سوءاً فيدفعه عنكم؛ أي: من الذي ينصُرُكم على أعدائكم غير الرحمٰن؛ فإنَّه تعالى هو الناصر المعزُّ المذلُّ، وغيره من الخلق لو اجتمعوا على نصر عبدٍ لم ينفعوه بمثقال[3] ذرَّةٍ على أيِّ عدوٍّ كان؛ فاستمرارُ الكافرين على كفرهم بعد أن عَلِموا أنَّه لا ينصُرُهم أحدٌ من دون الرحمٰن غرورٌ وسفهٌ.

﴿٢١﴾ ﴿أمّن هٰذا الذي يرزقُكُم إن أمسَكَ رزقَه﴾؛ أي: الرزق كلُّه من اللّه؛ فلو أمسك عنكم الرزق؛ فمن الذي يرسله لكم؟ فإنَّ الخلق لا يقدرون على رزق أنفسِهم؛ فكيف بغيرهم؟! فالرازق المنعم الذي لا يصيب العبادَ نعمةٌ إلَّا منه هو الذي يستحقُّ أن يُفْرَدَ بالعبادة، ولٰكنْ الكافرون ﴿لَجُّوا﴾؛ أي: استمروا ﴿في عُتُوٍّ﴾؛ أي: قسوةٍ وعدم لينٍ للحق، ﴿ونُفورٍ﴾؛ أي: شرودٍ عن الحقِّ.

﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿٢٢﴾ أي: أيُّ الرجلين أهدى؛ من كان تائهاً في الضَّلال غارقاً في الكفر قد انتكس قلبه فصار الحقُّ عنده باطلاً والباطل حقًّا، ومن كان عالماً بالحقِّ، مؤثراً له، عاملاً به، يمشي على الصراط المستقيم في أقواله وأعماله وجميع أحواله؟! فبمجرَّد

---

(١) في (ب): «جعل أجسادهن وخلقتهن». (٢) في (ب): «إذا أراد بكم الرحمٰن».
(٣) في (ب): «مثقال».

النظر إلى حال الرجلين؛ يعلم الفرق بينهما والمهتدي من الضالِّ منهما. والأحوالُ أكبرُ شاهدٍ من الأقوال.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ[1] وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿٢٣﴾ يقول تعالى مبيِّناً أنَّه المعبودُ وحدَه وداعياً عباده إلى شكره وإفراده بالعبادة: ﴿هو الذي أنشأكم﴾؛ أي: أوجدكم من العدم؛ من غير معاونٍ له ولا مظاهر، ولما أنشأكم؛ كمَّل لكم الوجود بالسمعِ والأبصارِ والأفئدةِ، وهٰذه الثلاثة هي أفضل[2] أعضاء البدن وأكمل القوى الجسمانيَّة، ولٰكنَّكم[3] مع هٰذا الإنعام ﴿قليلاً ما تشكُرون﴾ اللّه، قليلٌ منكم الشاكر، وقليلٌ منكم الشكر.

﴿٢٤﴾ ﴿قل هو الذي ذَرَأكُم في الأرض﴾؛ أي: بثَّكم في أقطارها، وأسكنَكم في أرجائها، وأمركم ونهاكم، وأسدى عليكم من النِّعم ما به تنتفعون، ثم بعد ذٰلك يحشُرُكم ليوم القيامةِ، ولٰكنَّ هٰذا الوعد بالجزاء ينكِرُه هٰؤلاء المعاندون.

﴿٢٥﴾ ﴿ويقولون﴾: تكذيباً: ﴿متى هٰذا الوعدُ إن كنتُم صادقينَ﴾؟ جعلوا علامة صدقِهم أنْ يُخبِروهم[4] بوقت مجيئِهِ، وهٰذا ظلمٌ وعنادٌ.

﴿٢٦﴾ فإنما ﴿العلم عند اللّه﴾: لا عند أحدٍ من الخلق، ولا ملازمة بين هٰذا الخبر[5] وبين الإخبار بوقته؛ فإنَّ الصدق يُعْرَفُ بأدلَّته، وقد أقام اللّه من الأدلَّة والبراهين على صحَّته ما لا يبقى معه أدنى شكٍّ لمن ألقى السمع وهو شهيدٌ.

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟[6] وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿٢٧﴾ يعني أنَّ محلَّ تكذيب الكفار وغرورهم به حين كانوا في الدُّنيا؛ فإذا كان

---

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾. وفي ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «أنفع».
(٣) في (ب): «ولكنه».
(٤) في (ب): «أن يخبروا».
(٥) في (ب): «بين صدق هذا الخبر».
(٦) في (أ) إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يوم الجزاء، ورأوا العذاب منهم ﴿زُلْفَةً﴾؛ أي: قريباً؛ ساءهم ذٰلك وأفظعهم وأقلقهم[١]، فتغيَّرت لذٰلك وجوهُهم، ووُبِّخوا على تكذيبهم، وقيل لهم: ﴿هٰذا الذي كنتُم به تَدَّعونَ﴾: فاليوم رأيتموه عياناً، وانجلى لكم الأمر، وتقطَّعت بكم الأسباب، ولم يبقَ إلَّا مباشرة العذاب[٢].

﴿٢٨﴾ ولما كان المكذِّبون للرسول ﷺ الذين يردُّون دعوته ينتظرون هلاكَه ويتربَّصون به ريب المنون؛ أمره اللّه أن يقولَ لهم: إنَّكم وإن حصلتْ لكم أمنيتُكم[٣] و﴿أهلكني اللّه ومن معي﴾: فليس ذٰلك بنافع لكم شيئاً؛ لأنَّكم كفرتم بآيات اللّه، واستحققتُم العذاب؛ فمن يجيرُكم ﴿من عذابٍ أليم﴾: قد تحتَّم وقوعُه بكم؛ فإذاً تعبُكم وحرصُكم على هلاكي غير مفيدٍ ولا مجدٍ لكم شيئاً.

﴿٢٩﴾ ومن قولهم: إنَّهم على هدى والرسول على ضلالٍ؛ أعادوا في ذٰلك وأبدوا، وجادلوا عليه وقاتلوا، فأمر اللّه نبيَّه أن يُخبِرَ عن حاله وحال أتباعه ما به يتبيَّن لكلِّ أحدٍ هداهم وتقواهم، وهو أنْ يقولوا: ﴿آمنَّا به وعليه تَوَكَّلْنا﴾: والإيمانُ يشملُ التصديق الباطن والأعمال الباطنة والظاهرة، ولمَّا كانت الأعمالُ وجودُها وكمالُها متوقفة على التوكُّل؛ خصَّ اللّه التوكُّل من بين سائر الأعمال، وإلَّا؛ فهو داخلٌ في الإيمان، ومن جملة لوازمه؛ كما قال تعالى: ﴿وعلى اللّه فتوكَّلوا إن كُنتُم مؤمنينَ﴾؛ فإذا كانت هٰذه حال الرسول وحال مَن اتَّبعه، وهي الحال التي تتعيَّن للفلاح وتتوقَّف عليها السعادة، وحالة أعدائه بضدِّها؛ فلا إيمان لهم ولا توكُّل؛ عُلِمَ بذٰلك مَن هو على هدىً ومن هو في ضلال مبينٍ.

﴿٣٠﴾ ثم أخبر عن انفراده بالنِّعم، خصوصاً الماء[٤] الذي جَعَلَ اللّه منه كلَّ شيءٍ حيٍّ، فقال: ﴿قل أرأيتُم إن أصبحَ ماؤكم غَوْراً﴾؛ أي: غائراً، ﴿فمن يأتيكم بماءٍ مَعينٍ﴾: تشربون منه وتسقونَ أنعامكم وأشجارَكم وزُروعكم؟ وهٰذا استفهامٌ بمعنى النفي؛ أي: لا يقدر أحدٌ على ذٰلك غير اللّه تعالى.

تم تفسير سورة الملك والحمد للّه[٥].

---

(١) في (ب): «وقلقل أفئدتهم».
(٢) في (ب): «ولم يبقَ إلاّ مباشرة العذاب، وتقطعت بكم الأسباب».
(٣) في (ب): «أنتم وإن حصلت لكم أمانيكم».
(٤) في (ب): «بالماء».
(٥) في (ب): «تمّت ولله الحمد».

تفسير سورة نٓ

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ۝٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ۝٥ بِأَيِّيكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ۝٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ۝٧﴾.

﴿١ ـ ٢﴾ يقسم تعالى بالقلم، وهو اسم جنس شامل للأقلام التي تُكْتَبُ بها أنواع العلوم، ويسطرُ بها المنثور والمنظوم[١]، وذٰلك أنَّ القلم وما يسطرُ[٢] به من أنواع الكلام من آياته[٣] العظيمة، التي تستحقُّ أن يُقْسِمَ [اللَّهُ] بها على براءة نبيِّه محمدٍ ﷺ مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون؛ فنفى عنه ذٰلك[٤] بنعمةِ ربِّه عليه وإحسانه؛ حيث منَّ عليه بالعقل الكامل والرأي الجَزْل والكلام الفَصل، الذي هو أحسن ما جرت به الأقلام وسطره الأنام، وهٰذا هو السعادة في الدُّنيا.

﴿٣﴾ ثم ذكر سعادته في الآخرة، فقال: ﴿وإنَّ لك لأجرًا غيرَ ممنونٍ﴾؛ أي: لأجراً عظيماً كما يفيده التنكير، غير مقطوع[٥]، بل هو دائمٌ مستمرٌّ، وذٰلك لما أسلفه ﷺ من الأعمال الصالحة والأخلاق الكاملة والهداية إلى كلِّ خير.

﴿٤﴾ ولهٰذا قال: ﴿وإنَّك لَعلى خُلُقٍ عظيم﴾؛ أي: عليًّا[٦] به، مستعلياً بخُلُقك الذي مَنَّ اللّه عليك به. وحاصل خُلُقِهِ العظيم ما فسَّرته به أمُّ المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها لمن سألها عنه، فقالت: كان خلقه القرآن[٧]. وذٰلك نحو قوله تعالى: ﴿خُذِ العَفْوَ وأْمُرْ بالعُرْفِ وأعرِضْ عن الجاهلينَ﴾، ﴿فبما رحمةٍ من اللّه لِنتَ لهم...﴾ الآية، ﴿لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكُم عزيزٌ عليه ما عَنِتُّم[٨]...﴾ الآية، وما أشبه ذٰلك من الآيات الدالاَّت على اتِّصافه ﷺ بمكارم الأخلاق،

---

(١) في (ب): «المنظوم والمنثور».
(٢) في (ب): «يسطرون به».
(٣) في (ب): «من آيات الله».
(٤) في (ب): «فنفى عنه الجنون».
(٥) في (ب): «﴿وإن لك لأجراً﴾؛ أي: عظيماً كما يفيده التنكير ﴿غير ممنون﴾؛ أي: مقطوع».
(٦) في (ب): «عالياً به».
(٧) أخرجه مسلم (٧٤٦).
(٨) في (ب): «ذكر الآية إلى قوله: ﴿رءوف رحيم﴾».

والآيات الحاثَّات على كلِّ خُلُقٍ جميل[١]، فكان له منها أكملها وأجلها، وهو في كلِّ خصلة منها في الذِّروة العليا، فكان [ﷺ] سهلاً ليناً قريباً من الناس، مجيباً لدعوة مَنْ دعاه، قاضياً لحاجة من استقضاه، جابراً لقلب مَنْ سأله لا يحرمه ولا يردُّه خائباً. وإذا أراد أصحابُهُ منه أمراً؛ وافقهم عليه وتابعهم فيه إذا لم يكن فيه محذورٌ، وإن عَزَمَ على أمرٍ؛ لم يستبدَّ به دونهم، بل يشاورهم ويؤامرهم، وكان يقبلُ من محسنهم، ويعفو عن مسيئهم، ولم يكن يعاشِرُ جليساً إلَّا أتمَّ عشرةٍ وأحسنها، فكان لا يعبسُ في وجهه، ولا يُغْلِظُ عليه في مقاله، ولا يطوي عنه بشره، ولا يمسك عليه فَلَتات لسانِهِ، ولا يؤاخذه بما يصدُرُ منه من جفوةٍ، بل يُحْسِنُ إليه[٢] غاية الإحسان، ويحتمله غاية الاحتمال ﷺ.

﴿٥ ـ ٦﴾ فلمَّا أنزله اللَّه في أعلى المنازل [من جميع الوجوه]، وكان أعداؤه ينسِبون إليه أنَّه مجنونٌ مفتونٌ؛ قال: ﴿فستُبْصِرُ ويُبْصِرونَ. بأيِّكُم المفتونُ﴾: وقد تبيَّن أنَّه أهدى الناس وأكملهم لنفسه ولغيره، وأنَّ أعداءه أضلُّ الناس وشرُّ الناس للناس[٣]، وأنَّهم هم الذين فتنوا عبادَ اللَّه وأضلُّوهم عن سبيله، وكفى بعلم اللَّه بذلك؛ فإنَّه [هو] المحاسب المجازي.

﴿٧﴾ ﴿إنَّ ربَّك هو أعلمُ بمن ضلَّ عن سبيله وهو أعلم بالمهتدينَ﴾: وهٰذا فيه تهديدٌ للضَّالِّين، ووعدٌ للمهتدين، وبيانٌ لحكمة اللَّه؛ حيث كان يهدي مَنْ يَصْلُحُ للهداية دون غيره.

﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ[٤] ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿٨﴾ يقول اللَّه تعالى لنبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿فلا تُطِعِ المكذِّبين﴾: الذين كذَّبوك وعاندوا الحقَّ؛ فإنَّهم ليسوا أهلاً لأن يُطاعوا؛ لأنَّهم لا يأمرون إلَّا بما يوافق أهواءهم، وهم لا يريدون إلَّا الباطل؛ فالمطيع لهم مُقْدِمٌ على ما يضرُّه، وهٰذا عامٌّ في كلِّ مكذِّب وفي كلِّ طاعةٍ ناشئةٍ عن التكذيب، وإن كان السياقُ في شيءٍ

---

(١) في (ب): «الحاثات على الخلق العظيم». (٢) في (ب): «إلى عشيره».
(٣) في (ب): «أضل الناس للناس».
(٤) في (أ) إلى قوله: ﴿سنسمه على الخرطوم﴾، وفي (ب) ذكر الآيات.

خاصٌ، وهو أنَّ المشركين طلبوا من النبيِّ ﷺ أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم ويسكتوا عنه.

﴿٩﴾ ولهٰذا قال: ﴿ودُّوا﴾؛ أي: المشركون، ﴿لو تُدْهِنُ﴾؛ أي: توافقهم على بعض ما هم عليه: إمَّا بالقول، أو بالفعل، أو بالسكوت عما يتعيَّن الكلام فيه ﴿فَيُدْهِنونَ﴾، ولٰكن اصدعْ بأمر اللّه، وأظهرْ دين الإسلام؛ فإنَّ تمام إظهاره نقضُ[1] ما يضادُّه وعيب ما يناقضه.

﴿١٠﴾ ﴿ولا تطِعْ كلَّ حلاَّفٍ﴾؛ أي: كثير الحلف؛ فإنَّه لا يكون كذٰلك إلَّا وهو كذَّابٌ، ولا يكون كذّاباً إلَّا وهو ﴿مَهينٍ﴾؛ أي: خسيس النفس، ناقصُ الهمة، ليس له رغبةٌ[2] في الخير، بل إرادتُه في شهوات نفسه الخسيسة.

﴿١١﴾ ﴿هَمَّازٍ﴾؛ أي: كثير العيب للناس والطعن فيهم[3] بالغيبة والاستهزاء وغير ذٰلك، ﴿مشاءٍ بنميمٍ﴾؛ أي: يمشي بين الناس بالنميمة، وهو نقلُ كلام بعضِ الناس لبعض لقصد الإفسادِ بينهم وإيقاع العداوة والبغضاء.

﴿١٢﴾ ﴿مَنَّاعٍ للخيرِ﴾: الذي يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزَّكَوات وغير ذٰلك. ﴿معتدٍ﴾: على الخلق؛ يظلِمُهم في دمائهم وأموالهم وأعراضهم[4]. ﴿أثيمٍ﴾؛ أي: كثير الإثم والذُّنوب المتعلِّقة في حقِّ اللّه [تعالى].

﴿١٣﴾ ﴿عُتُلٍّ بعدَ ذٰلك﴾؛ أي: غليظٍ شرس الخلق، قاسٍ، غير منقادٍ للحقِّ. ﴿زنيمٍ﴾؛ أي: دعيٌّ ليس له أصلٌ ولا مادةٌ ينتج منها الخير، بل أخلاقه أقبح الأخلاق، ولا يرجى منه فلاحٌ. له زِنْمَةٌ؛ أي: علامةٌ في الشرِّ يعرف بها.

﴿١٤﴾ وحاصل هٰذا أنَّ اللّه تعالى نهى عن طاعة كلِّ حلافٍ كذابٍ خسيس النفس سيِّئِ الأخلاق، خصوصاً الأخلاق المتضمِّنة للإعجاب بالنفس، والتكبُّر على الحقِّ وعلى الخَلْق، والاحتقار للناس بالغيبة والنَّميمة، والطعن فيهم، وكثرة المعاصي.

﴿١٥﴾ وهٰذه الآياتُ وإن كانت نزلتْ في بعض المشركين؛ كالوليد بن المغيرة أو غيره[5]؛ لقوله عنه: ﴿أن كان ذا مال وبنينَ. إذا تُتْلى عليه آياتُنا قال أساطيرُ

---

(١) في (ب): «بنقض».
(٢) في (ب): «همّة».
(٣) في (ب): «كثير العيب والطعن في الناس».
(٤) في (ب): «في ظلمهم في الدماء والأموال والأعراض».
(٥) انظر «فتح الباري» (٨/ ٦٦٢).

﴿الأولينَ﴾؛ أي: لأجل كثرة ماله وولده طغى واستكبر عن الحقِّ ودَفَعه حين جاءه وجعله من جملة أساطير الأولين التي يمكنُ صدقُها وكذبُها؛ فإنَّها عامةٌ في كلِّ من اتَّصف بهٰذا الوصف؛ لأنَّ القرآن نزل لهداية الخلق كلِّهم، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم، وربَّما نزل بعض الآياتِ في سببٍ أو [في] شخصٍ من الأشخاص، لتتَّضح به القاعدةُ العامةُ، ويُعْرَفَ به أمثال الجزئيات الداخلة في القضايا العامَّة.

﴿١٦﴾ ثم توعَّد تعالى مَنْ جرى منه ما وَصَفَ اللّه بأن اللّه سَيَسِمُهُ ﴿على الخرطوم﴾: في العذاب، وليعذبه عذاباً ظاهراً يكون عليه سِمَةً وعلامةً في أشقِّ الأشياء عليه وهو وجهه.

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ[1] أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ يقول تعالى: إنَّا بَلَوْنا هٰؤلاء المكذِّبين بالخير، وأمهلناهم، وأمددناهم بما شئنا من مال وولدٍ وطول عمرٍ ونحو ذٰلك ممَّا يوافق أهواءهم، لا لكرامتهم علينا، بل ربَّما يكون استدراجاً لهم من حيثُ لا يعلمون، فاغترارهم بذٰلك نظيرُ اغترار أصحاب الجنَّة الذين هم فيها شركاء، حين أينعت أشجارها، وزهت ثمارها[2]، وآن وقت صِرامها وجزموا أنَّها في أيديهم وطوع أمرهم، وأنَّه ليس ثَمَّ مانعٌ يمنعهم منها، ولهٰذا أقسموا وحلفوا من غير استثناءٍ أنَّهم سيصرمونها؛ أي: يجذُّونها مصبحين، ولم يَدْروا أنَّ اللّه بالمرصادِ، وأنَّ العذاب سيخلفهم عليها ويبادِرُهم إليها.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ ﴿فطاف عليها طائفٌ من ربِّك﴾؛ أي: عذابٌ نزل عليها ليلاً، ﴿وهم نائمونَ﴾: فأبادها، وأتلفها، ﴿فأصبحتْ كالصَّريم﴾؛ أي: كالليل المظلم، وذهبت الأشجار والثمار.

---

(١) في (أ) طمس. وفي (ب) إلى آخر القصة بعد ذكر الآية (١٩).

(٢) في (ب): «حيث زهت ثمارها، وأينعت أشجارها».

﴿٢١ ـ ٢٢﴾ هٰذا وهم لا يشعرون بهٰذا الواقع الملم، ولهٰذا تنادوا فيما بينهم لما أصبحوا؛ يقول بعضهم لبعض: ﴿اغدوا على حرثِكم إن كنتُم صارمين﴾.

﴿٢٣ ـ ٢٤﴾ ﴿فانطلقوا﴾: قاصدين لها[١]، ﴿وهم يتخافتونَ﴾: فيما بينهم بمنع[٢] حقِّ اللّه تعالى، ويقولون: ﴿لا يَدْخُلَنَّها اليومَ عليكم مسكينٌ﴾؛ أي: بكِّروا قبل انتشار الناس، وتواصوا مع ذٰلك بمنع الفقراء والمساكين. ومن شدَّة حرصهم وبخلهم أنَّهم يتخافتون بهٰذا الكلام مخافتةً خوفاً أن يَسْمَعَهم أحدٌ فيخبر الفقراء.

﴿٢٥﴾ ﴿وغَدَوْا﴾: في هٰذه الحالة الشنيعة والقسوة وعدم الرحمة ﴿على حردٍ قادرينَ﴾؛ أي: على إمساكٍ ومنعٍ لحقِّ اللّه جازمين بقدرتهم عليها.

﴿٢٦ ـ ٢٧﴾ ﴿فلمَّا رأوْها﴾: على الوصف الذي ذَكَرَ اللّه كالصريم، ﴿قالوا﴾: من الحيرة والانزعاج، ﴿إنَّا لضالُّون﴾؛ أي: تائهون عنها، لعلَّها غيرها، فلما تحقَّقوها ورجعت إليهم عقولهم؛ قالوا: ﴿بل نحن محرومون﴾: منها، فعرفوا حينئذٍ أنَّه عقوبةٌ.

﴿٢٨﴾ فَـ﴿قَالَ أوسطُهم﴾؛ أي: أعدلُهم وأحسنُهم طريقةً: ﴿ألم أقل لكم لولا تسبِّحونَ﴾؛ أي: تنزِّهون اللّه عما لا يليق به، ومن ذٰلك ظنُّكم أنَّ قدرتكم مستقلةٌ، فلولا استثنيتم وقلتُم[٣]: إنْ شاء اللّه، وجعلتم مشيئتكم تابعةً لمشيئتِهِ[٤]؛ لما جرى عليكم ما جرى.

﴿٢٩﴾ فَـ﴿قالوا سبحانَ ربِّنا إنَّا كُنَّا ظالمين﴾؛ أي: استدركوا بعد ذٰلك، ولٰكن بعدما وقع العذاب على جنتهم، الذي لا يُرفع، ولٰكن لعلَّ تسبيحهم هٰذا وإقرارهم على أنفسهم بالظُّلم ينفعهم في تخفيف الإثم ويكونُ توبةً.

﴿٣٠ ـ ٣٢﴾ ولهٰذا ندموا ندامةً عظيمةً، وأقبل ﴿بعضُهم على بعضٍ يتلاومونَ﴾: فيما أجروه وفعلوه، ﴿قالوا يا وَيْلَنا إنا كُنَّا طاغينَ﴾؛ أي: متجاوزين للحدِّ في حقِّ اللّه وحقِّ عباده، ﴿عسى ربُّنا أن يُبْدِلَنا خيراً منها إنَّا إلى ربِّنا راغبونَ﴾: فهم رجوا اللّه أن يبدِّلهم خيراً منها، ووعدوا أن[٥] سيرغبون إلى اللّه ويلحُّون عليه في الدُّنيا؛ فإنْ كانوا كما قالوا؛ فالظاهر أنَّ اللّه أبدلهم في الدُّنيا

---

(١) في (ب): «له».
(٢) في (ب): «ولكن بمنع».
(٣) في (ب): «فقلتم».
(٤) في (ب): «لمشيئة الله».
(٥) في (ب): «أنهم».

خيراً منها؛ لأنَّ من دعا الله صادقاً ورغب إليه ورجاه؛ أعطاه سؤاله.

﴿٣٣﴾ قال تعالى معظماً[١] ما وقع: ﴿كذلك العذابُ﴾؛ أي: الدنيويُّ لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلبَه الله[٢] الشيء الذي طغى به وبغى وآثَرَ الحياةَ الدُّنيا وأن يزيلَه عنه أحوجَ ما يكون إليه، ﴿ولَعذابُ الآخرةِ أكبرُ﴾: من عذاب الدُّنيا، ﴿لو كانوا يعلمون﴾: فإنَّ مَنْ عَلِمَ ذٰلك؛ أوجب له الانزجار عن كلِّ سبب يوجب العقاب ويحرم الثواب[٣].

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ[٤] ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾﴾.

﴿٣٤ ـ ٤١﴾ يخبر تعالى بما أعدَّه للمتَّقين للكُفرِ والمعاصي، من أنواع النعيم والعيش السليم في جوار أكرم الأكرمين، وأنَّ حكمته تعالى لا تقتضي أن يجعل المتَّقين[٥] القانتين لربِّهم، المنقادين لأوامره، المتَّبعين مراضِيَه، كالمجرمين الذين أوضَعوا في معاصيه والكفر بآياتِهِ ومعاندةِ رسلِهِ ومحاربة أوليائِهِ، وأنَّ من ظنَّ أنَّه يسوِّيهم في الثواب؛ فإنَّه قد أساء الحكم، وأنَّ حكمه [حكمٌ] باطلٌ ورأيه فاسدٌ، وأن المجرمين إذا ادَّعوا ذٰلك؛ فليس لهم مستندٌ، لا كتابٌ فيه يدرسون ويتلون أنَّهم من أهل الجنة، وأنَّ لهم ما طلبوا وتخيَّروا، وليس لهم عند الله عهدٌ ويمينٌ بالغةٌ إلى يوم القيامةِ أنَّ لهم ما يحكمون، وليس لهم شركاءُ وأعوانٌ على إدراك ما طلبوا؛ فإنْ كان لهم شركاءُ وأعوانٌ؛ فليأتوا بهم إن كانوا صادقين. ومن المعلوم أنَّ جميع ذٰلك منتفٍ؛ فليس لهم كتابٌ ولا لهم عهدٌ عند الله في النجاة ولا لهم شركاءُ يعينونَهم، فعُلِمَ أنَّ دعواهم باطلةٌ فاسدةٌ. وقوله: ﴿سَلْهُم أيُّهم بذٰلك زعيمٌ﴾؛ أي: أيُّهم الكفيل بهٰذه الدعوى التي تَبَيَّنَ بطلانها؛ فإنَّه لا يمكن أحداً أن يتصدَّر بها ولا يكون زعيماً فيها[٦].

---

(١) في (ب): «مبيّناً».
(٢) في (ب): «أن يسلب الله العبد».
(٣) في (ب): «ويحل العقاب».
(٤) في (أ) إلى قوله: ﴿فليأتوا بشركائهم إن كانوا صادقين﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٥) في (ب): «المسلمين».
(٦) في (ب): «بهذه الدعوى الفاسدة؛ فإنه لا يمكن التصدر بها ولا الزعامة فيها».

﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ[١] وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿٤٢ ـ ٤٣﴾ أي: إذا كان يوم القيامة، وانكشفَ فيه من القلاقل والزلازل والأهوال ما لا يدخُلُ تحت الوهم، وأتى الباري لفصل القضاءِ بين عباده ومجازاتهم، فكشف عن ساقه الكريمة التي لا يشبِهُها شيءٌ، ورأى الخلائقُ من جلال اللّه وعظمته ما لا يمكن التعبير عنه؛ فحينئذٍ ﴿يُدْعَوْنَ إلى السجود﴾: للّه، فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجُدون للّه طوعاً واختياراً، ويذهب الفجَّارُ المنافقون ليسجدوا؛ فلا يقدرون على السجود، وتكون ظهورهم كصياصِي البقرِ؛ لا يستطيعون الانحناء، وهٰذا الجزاء من جنس عملهم؛ فإنَّهم كانوا يُدْعَوْنَ في الدُّنيا إلى السجود للّه وتوحيده وعبادته وهم سالمون لا علَّة فيهم؛ فيستكبرون عن ذٰلك، ويأبَوْن؛ فلا تسأل يومئذٍ عن حالهم وسوء مآلهم؛ فإنَّ اللّه قد سَخِطَ عليهم، وحقَّت عليهم كلمة العذاب، وتقطَّعت أسبابهم، ولم تنفعهم الندامة والاعتذار يوم القيامة؛ ففي هٰذا ما يزعِجُ القلوب عن المقام على المعاصي ويوجب التدارك مدة الإمكان.

﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا[٢] ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُۢبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿٤٤ ـ ٤٥﴾ أي: دعني والمكذِّبين بالقرآن العظيم؛ فإنَّ عليَّ جزاءهم، ولا تستعجل لهم؛ فسنستدرِجُهم ﴿من حيث لا يعلمونَ﴾: فنُمِدُّهم بالأموال والأولاد، ونُمِدُّهم في الأرزاق والأعمال؛ ليغتروا ويستمرُّوا على ما يضرُّهم، وهٰذا[٣] من كيد اللّه لهم. وكيدُ اللّه لأعدائه متينٌ قويٌّ، يبلغ من ضررهم وعقوبتهم كلَّ[٤] مبلغ.

---

(١) في (أ) إلى قوله: ﴿وهم سالمون﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٢) في (أ) إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٣) في (ب): «فإن هذا».
(٤) في (ب): «وعذابهم فوق كلّ مبلغ».

﴿٤٦﴾ ﴿أم تسألهم أجراً فهم من مَغْرَم مُثْقَلون﴾؛ أي: ليس لنفورهم عنك وعدم تصديقهم لك سببٌ يوجب لهم ذٰلك[١]؛ فإنَّك تعلِّمُهم وتدعوهم إلى اللّه لمحض مصلحتهم من غير أن تطلبهم من أموالهم مغرماً يَثْقُلُ عليهم.

﴿٤٧﴾ ﴿أم عندَهم الغيبُ فهم يكتُبون﴾: ما كان عندهم من الغيوب، وقد وجدوا [فيها] أنَّهم على حقٍّ، وأنَّ لهم الثواب عند اللّه؛ فهٰذا أمرٌ ما كان، وإنَّما كانت حالهم حال معاندٍ ظالم.

﴿٤٨ ـ ٥٠﴾ فلم يبقَ إلَّا الصبر لأذاهم والتحمُّل لما يصدُرُ منهم والاستمرار على دعوتهم، ولهٰذا قال: ﴿فاصبِرْ لحكم ربِّك﴾؛ أي: لما حكم به شرعاً وقدراً؛ فالحكم القدريُّ يُصْبَرُ على المؤذي منه ولا يُتَلَقَّى بالسخط والجزع، والحكم الشرعيُّ يقابَلُ بالقَبول والتسليم والانقياد [التامِّ] لأمرِهِ. وقوله: ﴿ولا تكن كصاحب الحوتِ﴾: وهو يونس بن متى عليه الصلاة والسلام؛ أي: ولا تشابِهه في الحال التي أوصلَتْه وأوجبت له الانحباس في بطن الحوت، وهو عدم صبره على قومِهِ الصبرَ المطلوب منه وذَهابُه مغاضباً لربِّه، حتى ركب [في] البحر، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها أيُّهم يلقون؛ لكي تَخِفَّ بهم، فوقعت القرعةُ عليه، فالتقمه الحوتُ وهو مليمٌ. وقوله: ﴿إذ نادى وهو مكظومٌ﴾؛ أي: وهو في بطنها قد كظمت عليه، أو: نادى وهو مغتمٌّ مهتمٌّ، فقال[٢]: لا إلٰه إلا أنت سبحانك إنِّي كنت من الظالمين، فاستجاب اللّه له، وقَذَفَتْه الحوتُ من بطنها بالعراء وهو سقيمٌ، وأنبت اللّه عليه شجرةً من يقطينٍ، ولهٰذا قال هنا: ﴿لولا أن تداركَه نعمةٌ من ربِّه لَنُبِذَ بالعراء﴾؛ أي: لَطُرِحَ في العراء، وهي الأرض الخالية، ﴿وهو مذمومٌ﴾: ولٰكنَّ اللّه تغمَّده برحمته، فَنُبِذَ وهو ممدوحٌ، وصارت حالُه أحسنَ من حاله الأولى، ولهٰذا قال: ﴿فاجتباه ربُّه﴾؛ أي: اختاره واصطفاه ونقَّاه من كلِّ كدرٍ، ﴿فجعله من الصالحين﴾؛ أي: الذين صَلَحَتْ أعمالهم وأقوالهم ونيَّاتهم وأحوالهم.

﴿٥١ ـ ٥٢﴾ فامتثل نبيُّنا محمدٌ ﷺ أمر اللّه[٣]، فصبر لحكم ربِّه صبراً لا يدركه [فيه] أحدٌ من العالمين، فجعل اللّه له العاقبة، والعاقبةُ للمتقين، ولم يبلغ[٤] أعداؤه فيه إلَّا ما يسوؤهم، حتى إنَّهم حرصوا على أن يُزْلِقوه ﴿بأبصارهم﴾؛ أي: يصيبوه

---

(١) في (ب): «وعدم تصديقهم لما جئت به سبب يوجب لهم ذلك».
(٢) في (ب): «بأن قال».
(٣) في (ب): «أمر رَبّه».
(٤) في (ب): «ولم يدرك».

بأعينهم من حسدهم وحنقهم وغيظهم. هٰذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعليِّ، واللّه حافظه وناصِرُه. وأمَّا الأذى القوليُّ؛ فيقولون فيه أقوالاً بحسب ما توحي إليهم قلوبهم، فيقولون تارةً: مجنونٌ! وتارةً: شاعرٌ! وتارة: ساحرٌ![1] قال تعالى: ﴿وما هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾؛ أي: وما هٰذا القرآن العظيم[2] والذِّكر الحكيم إلَّا ذكرٌ للعالمين، يتذكَّرون به مصالح دينهم ودنياهم. والحمد للّه[3].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الحاقة

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٣﴾ [4]كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنْ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾.

﴿١ ـ ٣﴾ ﴿الحاقَّة﴾: من أسماء يوم القيامة؛ لأنَّها تحقُّ وتنزل بالخلق وتظهر فيها حقائق الأمور ومخبآت الصدور؛ فعظَّم تعالى شأنها وفخَّمه بما كرَّره من قوله: ﴿الحاقَّة. ما الحاقَّة. وما أدراك ما الحاقَّة﴾؛ فإنَّ لها شأناً عظيماً وهولاً جسيماً[5].

«ومن عظمتها أن الله أهلك الأمم المكذبة بها بالعذاب العاجل».

﴿٤﴾ ثم ذكر نموذجاً من أحوالها الموجودة في الدُّنيا المشاهدة فيها، وهو ما[6] أحلَّه من العقوبات البليغة بالأمم[7] العاتية، فقال: ﴿كذَّبتْ ثمودُ﴾: وهم القبيلةُ المشهورةُ سكان الحِجْر الذين أرسل اللّه إليهم رسوله صالحاً عليه السلام؛ ينهاهم عمَّا هم عليه من الشِّرك ويأمرهم بالتوحيد، فردُّوا دعوته، وكذَّبوه، وكذَّبوا ما

---

(١) في (ب): «تارة ساحر! وتارة شاعر».
(٢) في (ب): «القرآن الكريم».
(٣) في (ب): «تم تفسير سورة نٓ. والحمد لله رب العالمين».
(٤) في (أ) إلى قوله: ﴿فهل ترى لهم من باقية﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٥) زيادة: في هامش (ب): لم يشر المؤلف إلى مكانها. ولعل مكانها المناسب في هذا الموضع.
(٦) في (ب): «مما أحله».
(٧) في (ب): «في الأمم».

أخبر[١] به من يوم القيامةِ، وهي القارعة التي تقرع الخَلْقَ بأهوالها، وكذلك عادٌ الأولى سكان حضرموت حين بَعَثَ اللّه إليهم رسوله هوداً عليه الصلاة والسلام، يدعوهم إلى عبادة اللّه وحده، فكذّبوه، وأنكروا ما أخبر به من البعث، فأهلك اللّه الطائفتين بالهلاك العاجل[٢].

﴿٥﴾ ﴿فأمّا ثمودُ فأهْلِكوا بالطّاغية﴾: وهي الصيحة العظيمة الفظيعة، التي قطّعتْ[٣] قلوبهم وزهقتْ لها أرواحهم، فأصبحوا موتى لا يُرى إلّا مساكِنُهم وجُثَثُهم.

﴿٦﴾ ﴿وأمّا عادٌ فأُهْلِكوا بريح صرصرٍ﴾؛ أي: قويَّةٍ شديدةِ الهبوب لها صوتٌ أبلغ من صوت الرعد القاصف. ﴿عاتيةٍ﴾؛ أي: عتت على خزّانها على قول كثير من المفسرين، أو عتت على عادٍ، وزادت على الحدِّ كما هو الصحيح.

﴿٧﴾ ﴿سخّرَها عليهم سبعَ ليال وثمانية أيّام حسوماً﴾؛ أي: نحساً وشرًّا فظيعاً عليهم فدمّرتهم وأهلكتهم؛ ﴿فترى القومَ فيها صَرْعى﴾؛ أي: هَلكى موتى، ﴿كأنّهم أعجازُ نخلٍ خاويةٍ﴾؛ أي: كأنهم جذوعُ النخل التي قد قُطّعت رؤوسها الخاوية الساقط بعضها على بعض.

﴿٨﴾ ﴿فهل ترى لهم من باقيةٍ﴾؟: وهٰذا استفهامٌ بمعنى النفي المتقرِّر.

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾[٤] فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾.

﴿٩ ـ ١٠﴾ أي: وكذلك غير هاتين الأمّتين الطاغيتين عاد وثمود جاء غيرهم من الطُّغاة العتاة؛ كفرعون مصر الذي أرسل اللّه إليه عبده ورسوله موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام، وأراهم من الآيات البيِّنات ما تيقّنوا بها الحقَّ، ولٰكن جحدوا وكفروا ظلماً وعلوًّا، وجاء من قبله من المكذّبين ﴿والمؤتفكات﴾؛ أي: قرى قوم لوطٍ؛ الجميع جاؤوا ﴿بالخاطئة﴾؛ أي: بالفعلة الطاغية، وهو الكفر والتكذيب والظُّلم والمعاندة وما انضمَّ إلى ذٰلك من أنواع المعاصي[٥] والفسوق، ﴿فعصَوْا

---

(١) في (ب): «أخبرهم به».
(٢) في (ب): «المعجل».
(٣) في (ب): «انصدعت منها قلوبهم».
(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿أذنٌ واعية﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٥) في (ب): «الفواحش».

رسولَ ربِّهم﴾: وهٰذا اسم جنس؛ أي: كلٌّ من هٰؤلاء كذَّبوا الرسول الذي أرسله اللّه إليهم[١]؛ فأخذ اللّهُ الجميع ﴿أخذةً رابيةً﴾؛ أي: زائدة على الحدِّ والمقدار الذي يحصُلُ به هلاكهم.

﴿١١ ـ ١٢﴾ ومن جملة هٰؤلاء[٢] قومُ نوح؛ أغرقهم اللّه في اليمِّ حين طغى الماءُ على وجه الأرض[٣] وعلا على مواضعها الرفيعة، وامتنَّ اللّه على الخلق الموجودين بعدَهم أن[٤] حملهم ﴿في الجارية﴾، وهي السفينة؛ في أصلاب آبائهم وأمهاتهم، الذين نجَّاهم اللّه؛ فاحمدوا اللّه واشكروا الذي نجَّاكم حين أهلك الطاغين، واعتبروا بآياتِهِ الدالَّة على توحيده، ولهٰذا قال: ﴿لِنَجْعَلَها﴾؛ أي: الجارية، والمراد جنسها [لكم] ﴿تذكرةً﴾: تذكِّركم أول سفينةٍ صُنِعَتْ وما قصَّتها، وكيف نجَّى اللّه عليها مَنْ آمن به واتَّبع رسوله وأهلك أهل الأرض كلَّهم؛ فإنَّ جنس الشيء مذكِّرٌ بأصله. وقوله: ﴿وتَعِيها أذنٌ واعيةٌ﴾؛ أي: يعقلها[٥] أولو الألباب، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها. وهٰذا بخلاف أهل الإعراض والغفلة وأهلِ البلادة وعدم الفطنة؛ فإنَّهم ليس لهم انتفاعٌ بآيات اللّه؛ لعدم وعيهم عن اللّه وتفكرهم بآياته[٦].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ[٧] ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٣ ـ ١٨﴾ لمَّا ذكر تعالى ما فعله بالمكذِّبين لرسله، وكيف جازاهم وعجَّل لهم العقوبة في الدُّنيا، وأنَّ اللّه نجَّى الرسل وأتباعهم؛ كان هٰذا مقدِّمةً للجزاء[٨] الأخرويِّ وتوفيةَ الأعمال كاملةً يوم القيامةِ، فذكر الأمور الهائلة التي تقع أمام يوم القيامةِ، وأنَّ أوَّل ذٰلك أنَّه ينفخ إسرافيل ﴿في الصور﴾ ـ إذا تكاملتِ الأجسادُ نابتةً ـ نفخةً واحدةً؛ فتخرج الأرواح، فتدخلُ كلُّ روح في جسدها؛ فإذا الناس قيامٌ لربِّ

---

(١) في (ب): «إليه».
(٢) في (ب): «أولئك».
(٣) في (ب): «طغى في الأرض».
(٤) في (ب): «أن الله».
(٥) في (ب): «تعقلها».
(٦) في (ب): «وفكرهم بآيات الله».
(٧) في (أ): إلى قوله: ﴿لا تخفى منكم خافية﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٨) في (ب): «مقدمة لذكر الجزاء».

العالمين، ﴿وحُمِلَتِ الأرضُ والجبالُ فدُكَّتا دكةً واحدةً﴾؛ أي: فتتت الجبال، واضمحلَّت وخلطت بالأرض، ونُسِفَتْ عليها[١]، فكان الجميع قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً. هٰذا ما يُصنع بالأرض وما عليها، وأمَّا ما يُصنع بالسماء؛ فإنَّها تضطرب وتمور وتشقَّق[٢] ويتغيَّر لونُها، وتهي بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة، وما ذاك إلا لأمرٍ عظيم أزعجها وكربٍ جسيم هائل أوهاها وأضعفها، ﴿والمَلَكُ﴾؛ أي: الملائكة الكرام ﴿على أرجائِها﴾؛ أي: على جوانب السماء وأركانها، خاضعين لربِّهم، مستكينين لعظمته، ﴿ويحمِلُ عرشَ ربِّك فوقَهم يومئذٍ ثمانيةٌ﴾: أملاكٌ في غاية القوة، إذا أتى للفصل بين العباد والقضاء بينهم بعدله وقسطه وفضله، ولهٰذا قال: ﴿يومئذٍ تُعْرَضون﴾: على اللّه، ﴿لا تَخْفى منكم خافيةٌ﴾: لا من أجسادكم وذواتكم[٣]، ولا من أعمالكم وصفاتكم؛ فإنَّ اللّه تعالى عالمُ الغيب والشهادة، ويحشُرُ العباد حفاةً عراةً غُرلاً في أرض مستويةٍ يسمِعُهم الدَّاعي ويَنْفُذُهم البصرُ، فحينئذٍ يجازيهم بما عملوا، ولهٰذا ذَكَرَ كيفيةَ الجزاءِ، فقال:

﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ[٤] فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ وهٰؤلاء هم أهل السعادة؛ يُعْطَوْن كُتُبهم التي فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم تمييزاً لهم وتنويهاً بشأنهم ورفعاً لمقدارهم، ويقول أحدُهم عند ذٰلك من الفرح والسرور ومحبَّة أن يطَّلع الخلق على ما منَّ اللّه عليه به من الكرامة: ﴿هاؤُمُ اقرؤوا كتابِيَهْ﴾؛ أي: دونكم كتابي فاقرؤوه؛ فإنَّه يبشِّر بالجنَّات وأنواع الكرامات ومغفرة الذُّنوب وستر العيوب، والذي أوصلني إلى هٰذه الحال ما منَّ اللّه به عليَّ[٥] من الإيمان بالبعث والحساب والاستعداد له بالممكن من العمل، ولهٰذا قال: ﴿إنِّي ظننتُ أنِّي ملاقٍ حسابِيَهْ﴾؛ أي: أيقنتُ؛ فالظنُّ هنا بمعنى اليقين.

---

(١) في (ب): «ونسفت على الأرض».
(٢) في (ب): «وتتشقق».
(٣) في (ب): «لا من أجسامكم وأجسادكم».
(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٥) في (ب): «عليَّ به».

﴿٢١ ـ ٢٤﴾ ﴿فهو في عيشةٍ راضيةٍ﴾؛ أي: جامعة لما تشتهيه الأنفس وتلذُّ الأعين وقد رضوها ولم يختاروا عليها غيرها، ﴿في جنةٍ﴾: عاليةِ المنازل والقصور عالية المحلِّ، ﴿قطوفُها دانيةٌ﴾؛ أي: ثمرها وجناها من أنواع الفواكه قريبةٌ سهلة التناول على أهلها، ينالها أهلُها قياماً وقعوداً ومتَّكئين، ويقال لهم إكراماً: ﴿كلوا واشربوا﴾؛ أي: من كلِّ طعام لذيذٍ وشرابٍ شهيٍّ، ﴿هنيئاً﴾؛ أي: تامًّا كاملاً من غير مكدِّرٍ ولا منغِّصٍ. وذلك الجزاء حصل لكم ﴿بما أسلفتُم في الأيَّام الخالية﴾: من الأعمال الصالحة ـ وترك الأعمال السيِّئة ـ من صلاةٍ وصيام وصدقةٍ وحجٍّ وإحسانٍ إلى الخلق وذكر للّه وإنابةٍ إليه؛ فالأعمال جعلها اللّه سبباً لدخول الجنة ومادَّةً لنعيمها وأصلاً لسعادتها.

﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ[1] ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿٢٥ ـ ٢٩﴾ هٰؤلاء هم أهل الشقاء؛ يعطَوْن كتبهم المشتملة على أعمالهم السيِّئة[2] بشمالهم؛ تمييزاً لهم وخزياً وعاراً وفضيحةً، فيقول أحدُهم من الهمِّ والغمِّ والحزن[3]: ﴿يا ليتني لم أوتَ كتابِيَهْ﴾؛ لأنَّه يبشر بدخول النار والخسارة الأبديَّة، ﴿ولم أدرِ ما حسابِيَهْ﴾؛ أي: ليتني كنت نسياً منسيًّا ولم أُبْعَثْ وأحاسب، ولهٰذا قال: ﴿يا ليتَها كانتِ القاضيةَ﴾؛ أي: يا ليت موتتي هي الموتة التي لا بَعْثَ بعدها.

ثم التفت إلى ماله وسلطانه؛ فإذا هو وبالٌ عليه لم يقدِّم منه لآخرته ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب شيئاً[4]، فيقول: ﴿ما أغنى عنِّي مالِيَهْ﴾؛ أي: ما نفعني لا في الدُّنيا ـ لم أقدِّم منه شيئاً ـ ولا في الآخرة؛ قد ذهب وقت نفعه، ﴿هلك عني

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «يعطون كتب أعمالهم السيئة». (٣) في (ب): «والخزي».
(٤) في (ب): «ولم ينفعه في الافتداء من عذاب الله».

سُلطانِيَة﴾؛ أي: ذهب واضمحلَّ، فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا العَدَدُ ولا العُدَدُ[١] ولا الجاه العريض، بل ذهب ذٰلك كله أدراج الرياح، وفاتت بسببه المتاجر والأرباح، وحضرت بدله الهموم والغموم والأتراح.

﴿٣٠ ـ ٣٧﴾ فحينئذٍ يؤمَر بعذابه، فيقال للزَّبانية الغلاظ الشداد: ﴿خُذوه فغُلُّوه﴾؛ أي: اجعلوا في عنقه غلًّا يخنقه، ﴿ثم الجَحيم صَلُّوه﴾؛ أي: قلِّبوه على جمرها ولهبها، ﴿ثم في سلسلةٍ ذَرْعُها سبعون ذراعاً﴾: من سلاسل الجحيم في غاية الحرارة، ﴿فاسْلُكوه﴾؛ أي: انظموه فيها بأن تدخل في دبره وتخرج من فمه ويعلَّق فيها فلا يزال يعذَّب هٰذا العذاب الفظيع؛ فبئس العذاب والعقاب، وواحسرة له من التوبيخ والعتاب؛ فإنَّ السبب الذي أوصله إلى هٰذا المحلِّ ﴿إنَّه كان لا يؤمن باللّه العظيم﴾: بأن كان كافراً بربِّه معانداً لرسله رادًّا ما جاؤوا به من الحقِّ، ﴿ولا يحضُّ على طعام المسكين﴾؛ أي: ليس في قلبه رحمةٌ يرحم بها الفقراء والمساكين؛ فلا يطعمهم من ماله ولا يحضُّ غيره على إطعامهم؛ لعدم الوازع في قلبه، وذٰلك لأنَّ مدار السعادة ومادَّتها أمران: الإخلاص للّه الذي أصله الإيمان باللّه، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه الإحسان، الذي من أعظمها دفع ضرورة المحتاجين بإطعامهم ما يتقوَّتون به، وهٰؤلاء لا إخلاص ولا إحسان؛ فلذٰلك استحقُّوا ما استحقُّوا. ﴿فليس له اليومَ ها هنا﴾؛ أي: يوم القيامة ﴿حميمٌ﴾؛ أي: قريب أو صديق يشفع له لينجو من عذاب اللّه أو يفوز بثوابه[٢]. ﴿ولا تنفعُ الشفاعة عندَه إلَّا لمن أذن له﴾، ﴿ما للظالمين من حميم ولا شفيع يُطاع﴾. وليس له ﴿طعامٌ إلَّا من غِسْلينَ﴾: وهو صديدُ أهل النار، ٱلذي هو في غاية الحرارة والمرارة ونتن الريح وقبح الطعم[٣]، لا يأكل هٰذا الطعامَ الذميم ﴿إلَّا الخاطئونَ﴾، الذين أخطؤوا الصراط المستقيم، وسلكوا كلَّ طريق يوصِلُهم إلى الجحيم[٤]؛ فلذٰلك استحقُّوا العذاب الأليم.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ[٥] ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ

---

(١) في (ب): «فلم تنفع الجنود الكثيرة ولا العُدَدُ الخطيرة».

(٢) في (ب): «بثواب الله».

(٣) في (ب): «في غاية الحرارة ونتن الريح وقبح الطعم ومرارته».

(٤) في (ب): «وسلكوا سبل الجحيم».

(٥) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿٣٨ ـ ٤٣﴾ أقسم تعالى بما يُبْصِرُ الخلقُ من جميع الأشياء وما لا يبصِرونه، فدخل في ذٰلك كلُّ الخلق، بل دخل[١] في ذٰلك نفسُه المقدَّسة، على صدق الرسول بما جاء به من هٰذا القرآن الكريم، وأنَّ الرسول الكريم بلَّغه عن اللّه تعالى، ونزَّه اللّهُ رسولَه عمَّا رماه به أعداؤه من أنَّه شاعرٌ أو ساحرٌ، وأنَّ الذي حملهم على ذٰلك عدم إيمانهم وتذكُّرهم؛ فلو آمنوا وتذكَّروا ما ينفعهم ويضرُّهم، ومن ذٰلك أن ينظروا في حال محمدٍ ﷺ ويرمُقوا أوصافه وأخلاقه ليروا أمراً مثل الشمس يدلُّهم على أنَّه رسول اللّه حقًّا وأن ما جاء به ﴿تنزيلٌ من ربِّ العالمين﴾، لا يَليقُ أن يكون قولاً للبشر، بل هو كلامٌ دالٌّ على عظمة من تكلَّم به وجلالة أوصافه وكمال تربيته للخلق[٢] وعلوِّه فوق عباده. وأيضاً؛ فإنَّ هٰذا ظن منهم بما لا يليق باللّه وحكمته.

﴿٤٤ ـ ٤٧﴾ فإنه ﴿لو تقوَّل﴾: عليه وافترى ﴿بعض الأقاويل﴾: الكاذبة، ﴿لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتينَ﴾: وهو عرقٌ متصلٌ بالقلب إذا انقطع هلك[٣] منه الإنسان؛ فلو قدَّر أنَّ الرسول ـ حاشا وكلا ـ تقوَّل على اللّه؛ لعاجَلَه بالعقوبة وأخذَه أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ؛ لأنَّه حكيمٌ قديرٌ على كلِّ شيءٍ[٤]؛ فحكمته تقتضي أن لا يُمْهِلَ الكاذب عليه الذي يزعم أنَّ اللّه أباح له دماء مَنْ خالفه وأموالهم، وأنَّه هو وأتباعه لهم النجاةُ، ومَنْ خالفَه؛ فله الهلاكُ. فإذا كان اللّه قد أيَّد رسوله بالمعجزات، وبرهن على صدق ما جاء به بالآيات البيِّنات، ونصره على أعدائه، ومكَّنه من نواصيهم؛ فهو أكبر شهادةٍ منه على رسالته. وقوله: ﴿فما منكم من أحدٍ عنه حاجزينَ﴾؛ أي: لو أهلكه؛ ما امتنعَ هو بنفسه ولا قَدَرَ أحدٌ أن يمنعه من عذاب اللّه.

﴿٤٨﴾ ﴿وإنَّه﴾؛ أي: القرآن الكريم، ﴿لتذكرةٌ للمتَّقين﴾: يتذكَّرون به مصالح دينهم ودنياهم، فيعرفونها ويعملون عليها، يذكِّرهم العقائد الدينيَّة والأخلاق المرضيَّة

---

(١) في (ب): «بل يدخل».
(٢) في (ب): «لعباده».
(٣) في (ب): «مات».
(٤) في (ب): «لأنه حكيم. على كلِّ شيءٍ قدير».

والأحكام الشرعيَّة، فيكونون من العلماء الربانيِّين، والعباد العارفين، والأئمَّة المهديِّين.

﴿٤٩﴾ ﴿وإنَّا لَنَعْلَمُ أنَّ منكم مكذِّبين﴾: به، وهٰذا فيه تهديدٌ ووعيدٌ للمكذِّبين، وأنَّه[1] سيعاقِبُهم على تكذيبهم بالعقوبة البليغة.

﴿٥٠﴾ ﴿وإنَّه لحسرةٌ على الكافرين﴾: فإنَّهم لما كفروا به ورأوا ما وَعَدَهم به؛ تحسَّروا إذ لم يهتدوا به ولم ينقادوا لأمره، ففاتهم الثواب، وحصلوا على أشدِّ العذاب، وتقطَّعت بهم الأسباب.

﴿٥١﴾ ﴿وإنَّه لحقُّ اليقين﴾؛ أي: أعلى مراتب العلم؛ فإنَّ أعلى مراتب العلم اليقين، وهو العلم الثابت الذي لا يتزلزل ولا يزول. واليقين مراتبه ثلاثةٌ، كلُّ واحدة أعلى مما قبلها: أولُها علم اليقين، وهو العلمُ المستفاد من الخبر. ثم عينُ اليقين، وهو العلم المدرَك بحاسة البصر. ثم حقُّ اليقين، وهو العلم المدرَك بحاسَّة الذوق والمباشرة. وهٰذا القرآن بهٰذا الوصف؛ فإنَّ ما فيه من العلوم المؤيَّدة بالبراهين القطعيَّة وما فيه من الحقائق والمعارف الإيمانيَّة يحصُلُ به لمن ذاقه حقُّ اليقين.

﴿٥٢﴾ ﴿فسبِّح باسم ربِّك العظيم﴾؛ أي: نزِّههُ عما لا يَليق بجلاله، وقدِّسْه بذِكْرِ أوصاف جلاله وجماله وكماله.

تم تفسير سورة الحاقة. والحمد للّه رب العالمين[2].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة سأل سائل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ اللَّهِ ذِى الْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ الْمَلَٰٓئِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤ فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ۝٥ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ۝٦ وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا ۝٧﴾.

---

(١) في (ب): «فإنه».

(٢) في (ب): «والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً على كماله وإفضاله وعدله».

﴿١ ـ ٤﴾ يقول تعالى مبيِّناً لجهل المعاندين واستعجالهم لعذاب الله استهزاءً وتعنُّتاً وتعجيزاً: ﴿سأل سائلٌ﴾ أي: دعا داعٍ واستفتح مستفتح، ﴿بعذابٍ واقعٍ للكافرينَ﴾: لاستحقاقهم له بكفرِهم وعنادِهم. ﴿ليس له دافع من الله﴾؛ أي: ليسَ لهٰذا العذاب الذي استعجلَ به مَنِ استعجلَ من متمرِّدي المشركين أحدٌ يدفعه قبل نزوله أو يرفعه بعد نزوله، وهٰذا حين دعا النَّضْر بن الحارث القرشيُّ أو غيره من المكذِّبين[١]، فقال: ﴿اللهمَّ إنْ كان هٰذا هو الحقَّ من عندِكَ فأمطِرْ علينا حجارةً من السماء أو ائتنا بعذابٍ أليم...﴾ [إلى آخر الآيات]؛ فالعذابُ لا بدَّ أن يقع عليهم من الله؛ فإمَّا أن يُعَجِّلَ لهم في الدُّنيا، وإمَّا أن يُدَّخَرَ[٢] لهم في الآخرة؛ فلو عرفوا الله وعرفوا عظمته وسعة سلطانه وكمال أسمائِهِ وصفاتِهِ؛ لما استعجلوا، ولاستسلموا وتأدَّبوا، ولهٰذا ذكر تعالى من عظمته ما يضادُّ أقوالهم القبيحة، فقال: ﴿ذي المعارج. تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوح إليه﴾؛ أي: ذي العلوِّ والجلال والعظمة والتَّدبير لسائر الخلق، الذي تَعْرُجُ إليه الملائكة بما جعلها[٣] على تدبيره، وتَعْرُجُ إليه الرُّوح، وهٰذا اسم جنس يشمل الأرواح كلَّها؛ بَرَّها وفاجِرَها، وهٰذا عند الوفاة، فأمَّا الأبرار؛ فتعرج أرواحُهم إلى الله، فيؤذن لهم من سماءٍ إلى سماءٍ، حتى تنتهي إلى السماء التي فيها اللهُ عزَّ وجلَّ، فتحيي ربَّها وتسلِّم عليه وتحظى بقربه، وتبتهج بالدنوِّ منه، ويحصُلُ لها منه الثناء والإكرام والبرُّ والإعظام، وأمَّا أرواحُ الفجَّار؛ فتعرج، فإذا وصلت إلى السماء؛ استأذنتْ، فلا[٤] يؤذَنُ لها، وأعيدت إلى الأرض.

ثم ذكر المسافةَ التي تَعْرُجُ فيها الملائكةُ والرُّوح[٥] إلى الله، وأنَّها تعرج في يوم بما يَسَّر لها من الأسباب وأعانها عليه من اللَّطافة والخفَّة وسرعة السير، مع أنَّ تلك المسافة على السير المعتاد مقدار خمسين ألف سنةٍ، من ابتداء العروج إلى وصولها ما حُدَّ لها، وما تنتهي إليه من الملأ الأعلى؛ فهٰذا المُلْك العظيم والعالم الكبير علويُّه وسفليُّه جميعه قد تولَّى خلقه وتدبيره العليُّ الأعلى، فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة، [وَعَلِمَ] مستقرَّهم ومستودَعَهم، وأوصلهم من رحمته وبرِّه وإحسانه[٦] ما عمَّهم وشَمَلَهم، وأجرى عليهم حكمه القدريَّ وحكمه الشرعيَّ

---

(١) في (ب): «المشركين».
(٢) في (ب): «يؤخر».
(٣) في (ب): «بما دبّرها».
(٤) في (ب): «فلم يُؤذنْ».
(٥) في (ب): «والأرواح».
(٦) في (ب): «ورزقه».

وحكمه الجزائيَّ؛ فبؤساً لأقوام جهلوا عظمته ولم يقدروه حقَّ قدره، فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان. وسبحان الحليم الذي أمهلهم وما أهملهم، وآذَوْه فصبر عليهم وعافاهم ورَزَقَهم!

هٰذا أحدُ الاحتمالات في تفسير هٰذه الآية الكريمة، فيكون هٰذا العروجُ والصعودُ في الدنيا؛ لأنَّ السِّياق الأول يدلُّ عليه[1]. ويُحتمل أنَّ هٰذا في يوم القيامةِ، وأنَّ الله [تبارك و] تعالى يظهِرُ لعباده في يوم القيامةِ من عظمته وجلاله وكبريائه، ما هو أكبر دليل على معرفتِهِ مما يشاهدونه من عروج الأملاك والأرواح، صاعدةً ونازلةً بالتدابير الإلٰهيّة والشؤون الربَّانيَّة[2] في ذلك اليوم الذي مقداره خمسين ألف سنة من طوله وشدَّته، لٰكنَّ الله تعالى يخفِّفه على المؤمن.

﴿٥ ـ ٧﴾ وقوله: ﴿فاصْبِرْ صبراً جميلاً﴾؛ أي: اصبر على دعوتك لقومك صبراً جميلاً، لا تَضَجُّرَ فيه ولا ملل، بل استمرَّ على أمر الله، وادعُ عباده إلى توحيده، ولا يمنعْك عنهم ما ترى من عدم انقيادهم وعدم رغبتهم؛ فإنَّ في الصَّبر على ذٰلك خيراً كثيراً. ﴿إنَّهم يرونَه بعيداً ونراه قريباً﴾: الضمير يعود إلى البعث الذي فيه عذابُ السائلين بالعذاب؛ أي: إنَّ حالهم حال المنكر له، والذي غلبت عليه الشِّقْوة والسكرة، حتى تباعد جميع ما أمامه من البعث والنشور، والله يراه قريباً؛ لأنَّه رفيقٌ حليمٌ لا يَعْجَلُ، ويعلم أنَّه لا بدَّ أن يكون، و[كلُّ] ما هو آتٍ فهو قريبٌ.

ثم ذكر أهوال ذٰلك اليوم وما [يكون] فيه، فقال:

﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ[3] ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾.

﴿٨ ـ ٩﴾ أي: ﴿يوم﴾ القيامة تقع فيه هٰذه الأمور العظيمة ﴿تكونُ السماءُ كالمُهْلِ﴾: وهو الرصاص المذاب من تشقُّقها وبلوغ الهول منها كلَّ مبلغ، ﴿وتكونُ الجبالُ كالعِهْنِ﴾: وهو الصوف المنفوش، ثم تكون بعد ذٰلك هباءً منثوراً فتضمحلُّ.

---

(١) في (ب): «على هذا».
(٢) في (ب): «والشؤون في الخليقة».
(٣) في (أ): إلى قوله: ﴿وجمع فأوعى﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

﴿١٠ ـ ١٤﴾ فإذا كان هٰذا الانزعاج والقلق[١] لهٰذه الأجرام الكبيرة الشديدة؛ فما ظنُّك بالعبد الضعيف الذي قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار؟! أليس حقيقياً أن ينخلِعَ قلبُه و[ينزعجَ] لبُّه ويذهلَ عن كلِّ أحدٍ؟! ولهٰذا قال: ﴿ولا يسألُ حميمٌ حميماً يُبَصَّرونَهم﴾؛ أي: يشاهدُ الحميمُ ـ وهو القريب ـ حميمَه؛ فلا يبقى في قلبه متَّسع لسؤاله[٢] عن حاله ولا فيما يتعلَّق بعشرتهم ومودَّتهم ولا يهمُّه إلَّا نفسُه. ﴿يودُّ المجرمُ﴾: الذي حقَّ عليه العذاب ﴿لو يفتدي من عذاب يومئذٍ ببنيهِ. وصاحبتِهِ﴾؛ أي: زوجته، ﴿وأخيه. وفصيلته﴾؛ أي: قرابته، ﴿التي تُؤْويه﴾؛ أي: التي جرت عادتها في الدنيا أن تتناصَرَ ويعينَ بعضها بعضاً؛ ففي [يوم] القيامةِ لا ينفع أحدٌ أحداً، ولا يشفع أحدٌ إلَّا بإذن الله، بل لو يفتدي المجرمُ المستحقُّ للعذاب بجميع ما في الأرض ثم ينجيه ذٰلك؛ لم ينفعه[٣].

﴿١٥ ـ ١٨﴾ ﴿كلَّا﴾؛ أي: لا حيلة ولا مناص لهم، قد حقَّت عليهم كلمةُ ربِّك[٤]، وذهب نفعُ الأقارب والأصدقاء، ﴿إنَّها لظى. نزاعةً للشَّوى﴾؛ أي: النار التي تتلظَّى تنزعُ من شدَّتها للأعضاء الظاهرة والباطنة[٥]، ﴿تَدْعو﴾: إلى نفسها[٦] ﴿مَنْ أدْبَرَ وتَوَلَّى. وجَمَعَ فأوْعى﴾؛ أي: أدبر عن اتِّباع الحقِّ، وأعرض عنه؛ فلا غرض له فيه[٧]، وجمع الأموال بعضها فوق بعض، وأوعاها فلم ينفِقْ منها ما ينفعه ويدفع عنه النار؛ فالنار تدعو هٰؤلاء إلى نفسها[٨]، وتستعدُّ للالتهاب بهم.

﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾[٩] إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ

---

(١) في (ب): «القلق والانزعاج».
(٢) في (ب): «لسؤال حميمه».
(٣) في (ب): «ثم ينجيه، لم ينفعه ذلك».
(٤) في (ب): «قد حقت كلمة ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون».
(٥) في (ب): «أي للأعضاء الظاهرة والباطنة من شدّة عذابها».
(٦) في (ب): «تدعو إليها».
(٧) في (ب): «فليس له فيه غرض».
(٨) في (ب): «فإنّ النار تدعوهم إلى نفسها».
(٩) في (أ): إلى قوله: ﴿في جنات مكرمون﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِى جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.

﴿١٩ ـ ٢١﴾ وهٰذا الوصف للإنسان من حيث هو؛ ووَصَفَ طبيعتَه [الأصليةَ] أنَّه هلوعٌ، وفسَّر الهَلوعَ بقوله[1]: ﴿إذا مسَّه الشَّرُّ جزوعاً﴾: فيجزع إن أصابه فقرٌ أو مرضٌ أو ذهابُ محبوبٍ له من مال أو أهل أو ولدٍ، ولا يستعمل في ذٰلك الصبر والرِّضا بما قضى الله، ﴿وإذا مسَّه الخير منوعاً﴾: فلا يُنْفِقُ مما آتاه الله، ولا يشكر الله على نعمه وبرِّه فيجزع في الضَّراء ويمنع في السَّراء.

﴿٢٢ ـ ٢٣﴾ ﴿إلَّا المصلِّين﴾: الموصوفين بتلك الأوصاف؛ فإنَّهم إذا مسَّهم الخير؛ شكروا الله وأنفقوا مما خوَّلهم [الله]، وإذا مسَّهم الشرُّ؛ صبروا واحتسبوا. وقوله في وصفهم: ﴿الذين هم على صلاتهم دائمونَ﴾؛ أي: مداومون عليها في أوقاتها بشروطها ومكمِّلاتها، وليسوا كمن لا يفعلها، أو يفعلها وقتاً دون وقتٍ، أو يفعلها على وجهٍ ناقص.

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ ﴿والذين في أموالهم حقٌّ معلومٌ﴾: من زكاة وصدقة، ﴿للسائل﴾: الذي يتعرَّض للسؤال، ﴿والمحروم﴾: وهو المسكين الذي لا يسألُ الناس فيعطوه ولا يفطنُ له فيتصدَّق عليه.

﴿٢٦﴾ ﴿والذين يصدِّقون بيوم الدين﴾؛ أي: يؤمنون بما أخبر به وأخبرت به الرسلُ من الجزاء والبعث، ويتيقَّنون ذٰلك، فيستعدُّون للآخرة، ويَسْعَوْن لها سعيها. والتصديق بيوم الدين يلزم منه التصديق بالرسل وبما جاؤوا به من الكتب.

﴿٢٧ ـ ٢٨﴾ ﴿والذين هم من عذاب ربِّهم مشفِقون﴾؛ أي: خائفون وجِلون، فيتركون لذٰلك كلَّ ما يقرِّبهم من عذاب الله. ﴿إنَّ عذاب ربِّهم غيرُ مأمونٍ﴾؛ أي: هو العذاب الذي يُخشى ويُحذر.

﴿٢٩ ـ ٣١﴾ ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾: فلا يطؤون بها وطئاً محرماً من زنا أو لواطٍ أو وطءٍ في دُبُرٍ أو حيضٍ ونحو ذٰلك، ويحفظونها أيضاً من النظر إليها ومسِّها ممَّن لا يجوز له ذٰلك، ويتركون أيضاً وسائل المحرَّمات الداعية لفعل الفاحشة، ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكتْ أيمانُهم﴾؛ أي: سُرِّيَّاتهم، ﴿فإنَّهم غير

---

(١) في (ب): «بأنه».

ملومين﴾: في وطئهنَّ في المحلِّ الذي هو محلُّ الحرثِ. ﴿فمنِ ابتغى وراء ذٰلك﴾؛ أي: غير الزوجة وملك اليمين، ﴿فأولئك هم العادون﴾؛ أي: المتجاوزون ما أحل الله إلى ما حرم الله. ودلَّت هٰذه الآية على تحريم نكاح المتعة؛ لكونها غير زوجةٍ مقصودةٍ ولا ملك يمينٍ.

﴿٣٢﴾ ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدِهِم راعونَ﴾؛ أي: مراعون لها حافظون مجتهدون على أدائها والوفاء بها، وهٰذا شاملٌ لجميع الأمانات التي بين العبد وبين ربِّه؛ كالتكاليف السِّرِّيَّة التي لا يطَّلع عليها إلَّا اللهُ، والأمانات التي بيْن العبد وبيْن الخلق في الأموال والأسرار، وكذٰلك العهد شاملٌ للعهد الذي عاهد عليه الله، والعهد الذي عاهد الخلق عليه[١]؛ فإنَّ العهد يُسأل عنه العبد؛ هل قام به ووفَّاه أم رفضه وخانه فلم يقم به.

﴿٣٣﴾ ﴿والذين هم بشهادتهم قائمونَ﴾؛ أي: لا يشهدون إلَّا بما يعلمونه من غير زيادةٍ ولا نقصٍ ولا كتمانٍ، ولا يحابي فيها قريباً ولا[٢] صديقاً ونحوه، ويكون القصد بإقامتها[٣] وجه الله؛ قال تعالى: ﴿وأقيموا الشهادةَ لله﴾، ﴿يا أيُّها الذين آمنوا كونوا قوَّامينَ بالقِسطِ شهداءَ لله ولو على أنفسِكُم أوِ الوالِدَيْن والأقربين﴾.

﴿٣٤﴾ ﴿والذين هم على صلاتهم يحافظون﴾: بالمداومة عليها على أكمل الوجوه[٤].

﴿٣٥﴾ ﴿أولٰئك﴾؛ أي: الموصفون بتلك الصفات، ﴿في جناتٍ مُكْرَمون﴾؛ أي: قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم، ما تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين، وهم فيها خالدون.

وحاصل هٰذا أنَّ الله وصف أهل السعادة والخير بهٰذه الأوصاف الكاملة والأخلاق المرضيَّة الفاضلة من العبادات البدنيَّة؛ كالصلاة والمداومة عليها، والأعمال القلبيَّة؛ كخشية الله الداعية لكلِّ خير، والعبادات الماليَّة، والعقائد النافعة، والأخلاق الفاضلة؛ ومعاملة الله ومعاملة خلقِهِ أحسن معاملةٍ؛ من إنصافهم وحفظ حقوقهم وأماناتهم[٥] والعفَّة التامَّة بحفظ الفروج عمَّا يكرهه الله تعالى.

---

(١) في (ب): «عليه الخلق».
(٢) في (ب): «أو».
(٣) في (ب): «بها».
(٤) في (ب): «بمداومتها على أكمل وجوهها».
(٥) في (ب): «وحفظ عهودهم وأسرارهم».

﴿فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ[1] ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿٣٦ ـ ٣٩﴾ يقول تعالى مبيناً اغترار الكافرين: ﴿فمال الذين كَفَروا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ﴾؛ أي: مسرعين، ﴿عن اليمين وعن الشمال عِزِينَ﴾؛ أي: قطعاً متفرِّقة وجماعاتٍ متنوِّعة[2]، كلٌّ منهم بما لديه فرحٌ. ﴿أيطمعُ كلُّ امرئٍ منهم أن يُدْخَلَ جنَّةَ نعيم﴾؛ أيُّ[3] سببٍ أطمعهم وهم لم يقدِّموا سوى الكفر والجحود لربِّ[4] العالمين؟! ولهٰذا قال: ﴿كلاَّ﴾: أي: ليس الأمر بأمانيهم ولا إدراك ما يشتهون بقوَّتهم، ﴿إنَّا خلَقْناهم ممَّا يعلمونَ﴾؛ أي: من ماء دافقٍ يخرج من بين الصُّلب والترائب؛ فهم ضعفاء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرًّا ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ[5] إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿٤٠ ـ ٤١﴾ هٰذا إقسامٌ منه تعالى بالمشارق والمغارب للشمس والقمر والكواكب؛ لما فيها من الآيات الباهرات على البعث وقدرته على تبديل أمثالهم وهم بأعيانهم؛ كما قال تعالى: ﴿وننشِئَكم فيما لا تعلمونَ﴾. ﴿وما نحنُ بمسبوقينَ﴾؛ أي: ما أحدٌ يسبقنا ويفوتنا ويعجِزُنا إذا أردنا أن نعيدَه.

﴿٤٢﴾ فإذا تقرَّر البعث والجزاء، واستمرُّوا على تكذيبهم وعدم انقيادهم لآيات الله؛ ﴿فذَرْهم يخوضوا ويلعبوا﴾؛ أي: يخوضوا بالأقوال الباطلة والعقائد الفاسدة، ويلعبوا بدينهم، ويأكلوا ويشربوا ويتمتَّعوا، ﴿حتَّى يلاقوا يومَهُمُ الذي يوعدونَ﴾: فإنَّ الله قد أعدَّ لهم فيه من النَّكال والوبال ما هو عاقبةُ خوضهم ولعبهم.

﴿٤٣ ـ ٤٤﴾ ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون اليوم الذي يوعدون، فقال: ﴿يوم

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿كلا إنا خلقناهم مما يعلمون﴾: وفي (ب) ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «متوزِّعة».

(٣) في (ب): «بأيِّ».

(٤) في (ب): «برب».

(٥) في (أ): طمس، وفي (ب) ذكر الآيات إلى آخر السورة.

يَخْرُجونَ من الأجداثِ﴾؛ أي: القبور ﴿سراعاً﴾: مجيبين لدعوة الداعي مهطِعين إليها، ﴿كأنَّهم إلى نُصُبٍ يوفِضونَ﴾؛ أي: كأنَّهم إلى علم يَؤُمُّون ويقصدون؛ فلا[١] يتمكَّنون من الاستعصاء على الدَّاعي ولا الالتواء عن نداء المنادي[٢]، بل يأتون أذلَّاء مقهورين للقيام بين يدي ربِّ العالمين، ﴿خاشعةً أبصارُهم ترهَقُهم ذِلَّةٌ﴾: وذلك أنَّ الذِّلَّة والقلق قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم، فخشعتْ منهم الأبصار، وسكنتِ [منهم] الحركاتُ، وانقطعت الأصوات. فهذه الحال والمآل هو يومهم ﴿الذي كانوا يوعدون﴾: ولا بدَّ من الوفاء بوعد الله.

تمت. والحمد لله.

تفسير سورة نوح عليه السلام

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ[٣] مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى

---

(١) في (ب): «أي: يؤمرون ويسرعون؛ أي: فلا».

(٢) في (ب): «والالتواء لنداء المنادي».

(٣) في (أ): طمس، وفي (ب) إلى آخر السورة.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا۟ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾.

لم يذكر الله في هٰذه السورة إلَّا[1] قصَّة نوح وحدَها؛ لطول لَبْثِهِ في قومه وتكرار دعوته إلى التوحيد ونهيه عن الشرك:

﴿١﴾ فأخبر تعالى أنَّه أرسل نوحاً[2] إلى قومه رحمةً بهم وإنذاراً [لهم] من عذاب أليم؛ خوفاً من استمرارهم على كفرهم، فيهلكهم [اللَّهُ] هلاكاً أبديًّا، ويعذِّبهم عذاباً سرمديًّا.

﴿٢ ـ ٤﴾ فامتثل نوحٌ عليه السلام لذٰلك، وابتدر لأمر الله، فقال: ﴿يا قوم إنِّي لكم نذيرٌ مبينٌ﴾؛ أي: واضح النذارة بينها، وذٰلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه، وبأيِّ شيءٍ تحصُلُ النجاة؛ بيَّن ذٰلك[3] بياناً شافياً، فأخبرهم وأمرهم بأصل ذٰلك[4]، فقال: ﴿أنِ اعبُدوا الله واتَّقوه﴾: وذٰلك بإفراده تعالى بالعبادة والتوحيد[5] والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله؛ فإنَّهم إذا اتَّقوا الله؛ غَفَرَ ذنوبهم؛ وإذا غفر ذنوبهم، حصل لهم النجاة من العذاب والفوز بالثواب، ﴿ويؤخِّرْكم إلى أجل مسمًّى﴾؛ أي: يمتِّعكم في هٰذه الدار ويدفع عنكم الهلاك إلى إجل مسمًّى؛ أي: مقدَّر البقاء في الدنيا بقضاء الله وقدره إلى وقتٍ محدودٍ، وليس المتاع أبداً؛ فإنَّ الموت لا بدَّ منه، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ أجَلَ الله إذا جاء لا يؤخَّرُ لو كنتُم تعلمون﴾: كما[6] كفرتُم بالله وعاندتُم الحقَّ.

﴿٥ ـ ٧﴾ فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكياً لربِّه: ﴿ربِّ إنِّي دعوتُ قومي ليلاً ونهاراً. فلم يزِدْهم دعائي إلَّا فراراً﴾؛ أي: نفوراً عن الحقِّ

---

(١) في (ب): «سوى».
(٢) في (ب): «أنه أرسله».
(٣) في (ب): «بين جميع ذلك».
(٤) في (ب): «وأمرهم بزبدة ما يأمرهم به».
(٥) في (ب): «بالتوحيد والعبادة».
(٦) في (ب): «لما».

وإعراضاً، فلم يبق لذلك فائدةٌ؛ لأنَّ فائدة الدَّعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه، ﴿وإنِّي كلَّما دعوتُهم لتغفرَ لهم﴾؛ أي: لأجل أن يستجيبوا؛ فإذا استجابوا؛ غفرتَ لهم، وهٰذا[١] محضُ مصلحتهم، ولٰكن[٢] أبوا إلَّا تمادياً على باطلهم ونفوراً عن الحقِّ، ﴿جعلوا أصابِعَهم في آذانهم﴾؛ حَذَرَ سماع ما يقول لهم نبيُّهم نوحٌ عليه السلام، ﴿واستَغْشَوا ثيابَهم﴾؛ أي: تغطوا بها غطاءً يغشاهم بعداً عن الحقِّ وبغضاً له، ﴿وأصرُّوا﴾: على كفرهم وشرِّهم، ﴿واستَكْبَروا﴾: على الحقِّ ﴿استِكْباراً﴾: فشرهم ازداد وخيرهم بعد.

﴿٨ ـ ٩﴾ ﴿ثم إنِّي دعوتُهم جهاراً﴾؛ أي: بمسمع منهم كلهم، ﴿ثم إنِّي أعلنتُ لهم وأسررتُ لهم إسراراً﴾: كل هٰذا حرصٌ ونصحٌ، وإتيانهم بكلِّ طريق يظنُّ به حصول المقصود[٣].

﴿١٠ ـ ١٢﴾ ﴿فقلتُ استَغْفِروا ربَّكم﴾؛ أي: اتركوا ما أنتم عليه من الذنوب واستغفروا الله منها؛ ﴿إنَّه كان غفاراً﴾: كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغَّبهم بمغفرة الذُّنوب وما يترتب عليها من الثواب واندفاع العقاب، ورغَّبهم أيضاً بخير الدُّنيا العاجل، فقال: ﴿يرسِلِ السماءَ عليكم مِدراراً﴾؛ أي: مطراً متتابعاً يروي الشعاب والوهاد، ويحيي البلاد والعباد، ﴿ويُمْدِدْكُم بأموال وبنينَ﴾؛ أي: يكثر أموالكم التي تدركون بها ما تطلبون من الدُّنيا وأولادكم، ﴿ويجعل لكم جناتٍ ويجعل لكم أنهاراً﴾: وهٰذا من أبلغ ما يكون من لَذَّاتِ الدُّنيا ومطالبها.

﴿١٣ ـ ١٤﴾ ﴿ما لكم لا ترجونَ لله وَقاراً﴾؛ أي: لا تخافون لله عظمةً وليس لله عندكم قَدْرٌ، ﴿وقد خَلَقَكم أطواراً﴾؛ أي: خلقاً من بعد خلقٍ في بطن الأمِّ ثم في الرَّضاع ثم في سنِّ الطفوليَّة ثم التمييز ثم الشباب ثم إلى آخر ما يصل[٤] إليه الخلق؛ فالذي انفردَ بالخَلْق والتَّدبير البديع متعيِّنٌ أن يُفْرَدَ بالعبادة والتوحيد، وفي ذكر ابتداء خلقهم تنبيهٌ لهم على المعاد[٥]، وأنَّ الذي أنشأهم من العدم قادرٌ على أن يعيدَهم بعد موتهم.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ واستدلَّ أيضاً[٦] بخلقِ السماواتِ التي هي أكبر من خلق الناس،

---

(١) في (ب): «فكان هذا».
(٢) في (ب): «ولكنهم».
(٣) في (ب): «وإتيانهم بكل باب يظن أن يحصل منه المقصود».
(٤) في (ب): «وصل».
(٥) في (ب): «تنبيه لهم على الإقرار بالمعاد».
(٦) في (ب): «واستدلَّ أيضاً عليهم».

فقال: ﴿ألم تَرَوْا كيف خَلَقَ الله سبع سمٰواتٍ طباقاً﴾؛ أي: كلّ سماءٍ فوق الأخرى، ﴿وجعل القمر فيهنَّ نوراً﴾: لأهل الأرض، ﴿وجعل الشمسَ سِراجاً﴾: ففيه تنبيهٌ على عظم خلق هٰذه الأشياء، وكثرة المنافع في الشمس والقمر، الدالَّة على رحمة الله[1] وسعة إحسانه؛ فالعظيم الرحيم يستحقُّ أن يعظَّم ويُحبَّ[2] ويُخاف ويُرجى.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿والله أنبتَكم من الأرض نباتاً﴾: حين خلق أباكم آدمَ وأنتم في صلبِهِ، ﴿ثم يعيدُكم فيها﴾: عند الموت، ﴿ويخرِجُكم إخراجاً﴾: للبعث والنشور؛ فهو الذي يملك الحياة والموت والنشور.

﴿١٩ ـ ٢٠﴾ ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾؛ أي: مبسوطةً مهيئة للانتفاع بها، ﴿لِتَسْلُكوا منها سُبُلاً فِجاجاً﴾: فلولا أنَّه بسطها؛ لما أمكن ذٰلك، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها والبناء والسكون على ظهرها.

﴿٢١ ـ ٢٤﴾ ﴿قال نوحٌ﴾: شاكياً لربِّه: إنَّ هٰذا الكلام والوعظ والتَّذكير ما نَجَعَ فيهم ولا أفاد: ﴿إنَّهم عَصَوْني﴾: فيما أمرتُهم به، ﴿واتَّبعوا مَنْ لم يَزِده مالُه وولدُه إلَّا خساراً﴾؛ أي: عَصَوُا الرسول الناصح الدالَّ على الخير، واتَّبعوا الملأ والأشراف الذين لم تَزِدْهم أموالُهم ولا أولادُهم إلَّا خساراً؛ أي: هلاكاً وتفويتاً للأرباح؛ فكيف بِمَنِ انقادَ لهم وأطاعهم؟! ﴿ومكروا مَكْراً كُبَّاراً﴾؛ أي: مكراً كبيراً بليغاً في معاندة الحقِّ. قالوا لهم داعين إلى الشرك مزينين له: ﴿لا تَذَرُنَّ آلهتكم﴾: فدعوهم إلى التعصُّب على ما هم عليه من الشرك، وأن لا يَدَعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون، ثم عيَّنوا آلهتهم، فقالوا: ﴿ولا تَذَرُنَّ ودًّا ولا سُواعاً ولا يَغوثَ ويعوقَ ونَسْراً﴾: وهٰذه أسماء رجال صالحين؛ لما ماتوا؛ زيَّن الشيطان لقومهم أن يصوِّروا صورهم؛ لينشطوا بزعمهم على الطاعةِ إذا رأوها، ثم طال الأمدُ، وجاء غير أولٰئك، فقال لهم الشيطانُ: إنَّ أسلافَكم يعبدونهم ويتوسَّلون بهم، وبهم يُسْقَوْن المطر، فعبدوهم، ولهٰذا وصَّى رؤساؤهم للتابعين لهم أن لا يَدَعوا عبادة هٰذه الأصنام[3]، ﴿وقد أضلُّوا كثيراً﴾؛ أي: أضلَّ الكبار والرؤساء بدعوتهم كثيراً من الخلق. ﴿ولا تزِدِ الظالمينَ إلَّا ضلالاً﴾؛ أي: لو كان ضلالهم عند دعوتي إيَّاهم للحقِّ[4]؛ لكان مصلحةً، ولٰكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلَّا ضلالاً؛ أي: فلم يبق محلٌّ لنجاحهم وصلاحهم.

---

(١) في (ب): «على رحمته».
(٢) في (ب): «ويحب ويعبد ويخاف..».
(٣) في (ب): «الآلهة».
(٤) في (ب): «بحق».

﴿٢٥﴾ ولهٰذا ذكر الله عذابَهم وعقوبتهم الدنيويَّة والأخرويَّة، فقال: ﴿مِمَّا خطيئاتِهم أُغرِقوا﴾: في اليمِّ الذي أحاط بهم، ﴿فأُدْخِلوا ناراً﴾: فذهبت أجسادُهم في الغرق وأرواحُهم للنار والحرق. وهٰذا كلُّه بسبب خطيئاتهم التي أتاهم نبيُّهم [نوح] ينذِرُهم عنها ويخبِرُهم بشؤمها ومغبَّتها، فرفضوا ما قال، حتى حلَّ بهم النَّكال، ﴿فلم يجِدوا لهم من دونِ الله أنصاراً﴾: ينصُرونهم حين نزل بهم الأمرُ الأمرُّ، ولا أحد يقدر يعارِضُ القضاء والقدر.

﴿٢٦ ـ ٢٧﴾ ﴿وقال نوحٌ ربِّ لا تَذَرْ على الأرضِ من الكافرين ديَّاراً﴾: يدور على وجه الأرض. وذكر السبب في ذٰلك، فقال: ﴿إنَّكَ إن تَذَرْهُم يُضِلُّوا عبادك ولا يَلِدوا إلَّا فاجراً كفَّاراً﴾؛ أي: بقاؤهم مفسدةٌ محضةٌ لهم ولغيرهم، وإنَّما قال نوحٌ ذٰلك؛ لأنَّه مع كثرة مخالطته إيَّاهم ومزاولته لأخلاقهم؛ علم بذٰلك نتيجة أعمالهم؛ فلهٰذا استجاب الله له دعوته[1] فأغرقهم أجمعين، ونجَّى نوحاً ومن معه من المؤمنين.

﴿٢٨﴾ ﴿ربِّ اغفِرْ لي ولوالديَّ ولِمَنْ دَخَلَ بيتي مؤمناً﴾: خصَّ المذكورين لتأكُّد حقِّهم وتقديم برِّهم، ثم عمَّم الدُّعاء، فقال: ﴿وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزِدِ الظالمينَ إلا تَباراً﴾؛ أي: خساراً ودماراً وهلاكاً.

تم تفسير سورة نوح. والحمد لله[2].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة قل أوحي إليّ

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢﴾.

﴿١﴾ أي: ﴿قل﴾: يا أيُّها الرسول للناس، ﴿أوحِيَ إليَّ أنَّه استمع نفرٌ من الجنِّ﴾: صرفهم الله إلى رسوله لسماع آياته؛ لتقوم عليهم الحجَّة وتتمَّ عليهم

(١) في (ب): «لا جرم أنّ الله استجاب دعوته».

(٢) في (ب): «تمّ تفسير سورة نوح عليه السلام».

النعمة ويكونوا منذِرين[١] لقومهم، وأمر [اللَّهُ] رسولَه أن يقصَّ نبأهم على الناس، وذٰلك أنَّهم لما حضروه؛ قالوا: أنصتوا، فلما أنصتوا؛ فهموا معانيه ووصلت حقائقُه إلى قلوبهم. ﴿فقالوا إنَّا سمِعْنا قرآناً عَجَباً﴾؛ أي: من العجائب الغالية والمطالب العالية.

﴿٢﴾ ﴿يهدي إلى الرُّشْدِ﴾: والرُّشدُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم، ﴿فآمنَّا به ولن نُشْرِكَ بربِّنا أحداً﴾: فجمعوا بين الإيمان الذي يدخُلُ فيه جميع أعمال الخير، وبين التَّقوى المتضمِّنة لترك الشرِّ، وجعلوا السبب الداعي لهم إلى الإيمان وتوابعه ما علموه من إرشادات القرآن، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد واجتناب المضارِّ؛ فإنَّ ذٰلك آيةٌ عظيمةٌ وحجَّةٌ قاطعةٌ لمن استنار به واهتدى بهديه، وهٰذا الإيمانُ النافع المثمر لكلِّ خير، المبنيُّ على هداية القرآن؛ بخلاف إيمان العوائد والمَرْبى والإلف ونحو ذٰلك؛ فإنَّه إيمانُ تقليدٍ تحت خطر الشُّبُهات والعوارض الكثيرة.

[﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ۝٤﴾][٢].

﴿٣﴾ ﴿وأنَّه تعالى جَدُّ رَبِّنا﴾؛ أي: تعالت عظمتُه وتقدَّستْ أسماؤُه، ﴿ما اتَّخَذَ صاحبةً ولا ولداً﴾: فعلموا من جَدِّ الله وعظمتِهِ ما دلَّهم على بطلان مَنْ يزعُمُ أنَّ له صاحبةً أو ولداً؛ لأنَّ له العظمة والجلال[٣] في كلِّ صفة كمال، واتِّخاذُ الصاحبة والولد ينافي ذٰلك؛ لأنَّه يضادُّ كمال الغنى.

﴿٤﴾ ﴿وأنَّه كان يقولُ سفيهُنا على الله شططاً﴾؛ أي: قولاً جائراً عن الصواب متعدياً للحدِّ، وما حمله على ذٰلك إلَّا سفهُه وضعفُ عقله، وإلَّا؛ فلو كان رزيناً مطمئناً؛ لعرف كيف يقول.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۝٥﴾.

﴿٥﴾ أي: كنَّا مغترِّين قبل ذٰلك، غرَّتنا السادة[٤] والرؤساء من الجنِّ والإنس، فأحسنَّا بهم الظنَّ، وحسبناهم[٥] لا يتجرؤون على الكذب على الله؛ فلذٰلك كنَّا

---

(١) في (ب): «نذاراً».
(٢) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.
(٣) في (ب): «الكمال».
(٤) في (ب): «غرّنا القادة...».
(٥) في (ب): «وظنناهم».

قبل ذٰلك على طريقهم؛ فاليوم إذ بان لنا الحقُّ؛ سلكنا طريقه[١]، وانقَدْنا له، ولم نبالِ بقول أحدٍ من الخلق[٢] يعارض الهدى.

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾﴾.

﴿٦﴾ أي: كان الإنس يعوذون بالجنِّ[٣] عند المخاوف والأفزاع ويعبُدونهم، فزاد الإنسُ الجنَّ رهقاً؛ أي: طغياناً وتكبراً، لمَّا رأوا الإنس يعبدونَهم ويستعيذون بهم، ويُحتمل أنَّ الضمير وهي الواو ترجع[٤] إلى ﴿الجنّ﴾؛ أي: زاد الجنُّ الإنسَ ذُعْراً وتخويفاً لما رأوْهم يستعيذون بهم ليلجِئوهم إلى الاستعاذة بهم والتمسُّك بما هم عليه، فكان الإنسيُّ إذا نزل بوادٍ مخوفٍ؛ قال: أعوذ بسيِّد هٰذا الوادي من سفهاء قومه.

﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾﴾.

﴿٧﴾ أي: فلمَّا أنكروا البعث؛ أقدموا على الشرك والطغيان.

[﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٰٔنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾][٥].

﴿٨ ـ ٩﴾ ﴿وأنّا لمسنا السماءَ﴾؛ أي: أتيناها واختبرناها، ﴿فوجَدْناها مُلِئَتْ حرساً شديداً﴾: عن الوصول إلى أرجائها والدنوِّ منها، ﴿وشُهُباً﴾: يرمى بها من استرقَ السمعَ، وهٰذا مخالفٌ لعادتنا[٦] الأولى؛ فإنَّا كنَّا نتمكَّن من الوصول إلى خبر السماء فإنا ﴿كنَّا نقعدُ منها مقاعدَ للسمعِ﴾: فنتلقَّف من أخبار السماء ما شاء اللّه، ﴿فمن يستمِعِ الآنَ يَجِدْ له شهاباً رصداً﴾؛ أي: مرصداً له معدًّا لإتلافه وإحراقه؛ أي: وهٰذا له شأنٌ عظيمٌ ونبأٌ جسيمٌ، وجزموا أنَّ اللّه تعالى أراد أن يحدِثَ في الأرض حادثاً كبيراً من خيرٍ أو شرٍّ؛ فلهٰذا قالوا:

﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾﴾.

---

(١) في (ب): «إذ بان لنا الحق؛ رجعنا إليه..».

(٢) في (ب): «من الناس».

(٣) في (ب): «يعبدون الجن ويستعيذون بهم».

(٤) في (ب): «ويحتمل أن الضمير في (زادوهم) يرجع إلى الجن، ضمير الواو».

(٥) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.

(٦) في (ب): «وهذا بخلاف عادتنا».

﴿١٠﴾ أي: لا بدَّ من هٰذا أو هٰذا؛ لأنَّهم رأوا الأمر تغيَّر عليهم تغيُّراً أنكروه، فعرفوا بفطنتهم أنَّ هٰذا الأمر يريده اللّه ويحدِثُه في الأرض، وفي هٰذا بيانٌ لأدبهم إذ أضافوا الخير إلى اللّه تعالى، والشرُّ حذفوا فاعله تأدُّباً [مع اللّه].

[﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾][1].

﴿١١﴾ ﴿وأنَّا منَّا الصالحون ومنَّا دون ذٰلك﴾؛ أي: فساق وفجار وكفار، ﴿كنَّا طرائِقَ قِدَداً﴾؛ أي: فرقاً متنوعةً وأهواءً متفرقةً؛ كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون.

﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾﴾.

﴿١٢﴾ أي: وأنَّا في وقتنا الآن تبيَّن لنا كمال قدرة اللّه وكمال عجزنا، وأنَّ نواصينا بيد اللّه؛ فلن نعجِزَه في الأرض ولن نَعجِزَه إن هَرَبْنا وسَعَيْنا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته، لا ملجأ منه إلَّا إليه.

[﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾﴾][2].

﴿١٣﴾ ﴿وأنَّا لمَّا سمِعنا الهدى﴾: وهو القرآن الكريم الهادي إلى الصراط المستقيم، وعرفنا هدايته وإرشاده؛ أثَّر في قلوبنا، فآمنَّا به، ثم ذكروا ما يرغِّب المؤمن، فقالوا: ﴿فمن يؤمِن بربِّه فلا يخافُ بخساً ولا رَهَقاً﴾؛ أي: من آمن به إيماناً صادقاً؛ فلا عليه نقصٌ[3] ولا أذىً يلحقُه، وإذا سَلِمَ من الشرِّ؛ حصل له الخيرُ؛ فالإيمان سببٌ داعٍ إلى [حصول] كلِّ خيرٍ وانتفاء كلِّ شرٍّ.

﴿١٤﴾ ﴿وأنَّا منَّا المسلمونَ ومنَّا القاسطونَ﴾؛ أي: الجائرون العادلون عن الصراط المستقيم، ﴿فَمَنْ أسلم فأولٰئك تَحَرَّوْا رَشَداً﴾؛ أي: أصابوا طريق الرشد الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها.

﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ [وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾﴾][2].

---

(١) الآية زيادة لا توجد في النسختين.
(٢) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.
(٣) في (ب): «﴿فمن يؤمن بربّه﴾ إيماناً صادقاً ﴿فلا يخاف بخساً ولا رهقاً﴾؛ أي: لا نقصاً ولا طغياناً».

﴿١٥ ـ ١٧﴾ ﴿وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا﴾: وذلك جزاءً على أعمالهم، لا ظلم من الله لهم، فإنَّهم ﴿لو استقاموا على الطريقة﴾: المثلى، ﴿لأسقيناهم ماءً غدقا﴾؛ أي: هنيئاً مريئاً، ولم يمنعْهم ذلك إلَّا ظلمهم وعدوانهم، ﴿لنفتنهم فيه﴾؛ أي: لنختبرهم [فيه] ونمتحِنَهم ليظهر الصادق من الكاذب، ﴿ومن يعرِضْ عن ذكر ربِّه يَسْلُكْه عذاباً صَعَداً﴾؛ أي: من أعرض عن ذكر الله الذي هو كتابه، فلم يتَّبِعْه وينقدْ له، بل لها عنه وغفل[1]؛ يَسْلُكْه عذاباً صَعَداً؛ أي: بليغاً شديداً[2].

﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ [وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾ ﴾][3].

﴿١٨﴾ ﴿وأنَّ المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا﴾؛ أي: لا دعاء عبادةٍ ولا دعاء مسألةٍ؛ فإنَّ المساجد التي هي أعظم محالِّ العبادة مبنيَّةٌ على الإخلاص لله والخضوع لعظمته والاستكانة لعزَّته.

﴿١٩﴾ ﴿وأنَّه لمَّا قام عبدُ اللهِ يدعوه﴾؛ أي: يسأله ويتعبَّد له ويقرأ القرآن كاد الجنُّ من تكاثُرِهم عليه، ﴿يكونون[4] عليه لِبَدا﴾؛ أي: متلبِّدين متراكمين حرصاً على [سماع] ما جاء به من الهدى.

﴿٢٠﴾ ﴿قل﴾: لهم يا أيُّها الرسول، مبيِّناً حقيقة ما تدعو إليه: ﴿إنَّما أدعو ربِّي ولا أشركُ به أحدا﴾؛ أي: أوحِّده وحده لا شريك له، وأخلع ما دونَه من الأنداد والأوثان، وكلُّ ما يتَّخذه المشركون من دونه.

---

(١) في (ب): «بل غفل عنه ولها».
(٢) في (ب): «شديداً بليغاً».
(٣) الآيات زيادة لا توجد في النسختين.
(٤) في (ب): «أن يكونوا».

﴿٢١ ـ ٢٢﴾ ﴿قل إنِّي لا أملِكُ لكم ضَرًّا ولا رَشَداً﴾: فإنِّي عبدٌ ليس لي من الأمر والتصرُّفِ شيءٌ[١]، ﴿قلْ إنِّي لن يُجيرَني من اللهِ أحدٌ﴾؛ أي: لا أحدَ أستجير به ينقذني من عذاب الله، وإذا كان الرسولُ الذي هو أكملُ الخلق لا يملكُ ضرًّا ولا رشداً ولا يمنعُ نفسَه من الله شيئاً إن أراده بسوءٍ؛ فغيرُهُ من الخلق من باب أولى وأحرى، ﴿ولن أجدَ من دونِهِ مُلْتَحَداً﴾؛ أي: ملجأ ومنتصراً.

﴿٢٣﴾ ﴿إلَّا بلاغاً من الله ورسالاتِهِ﴾؛ أي: ليس لي مزيَّةٌ على الناس إلَّا أنَّ الله خصَّني بإبلاغ رسالاته ودعوة خلقِهِ إليه[٢]، وبذلك تقوم الحجَّةُ على الناس، ﴿ومن يَعْصِ الله ورسولَه فإنَّ له نارَ جهنَّمَ خالدين فيها أبداً﴾: وهٰذا المراد به المعصية الكفريَّة كما قيَّدتها النُّصوص الأخر المحكمة، وأمَّا مجرَّد المعصية؛ فإنَّه لا يوجب الخلود في النار؛ كما دلَّت على ذٰلك آيات القرآن والأحاديث عن النبيِّ ﷺ، وأجمع عليه سَلَفُ الأمَّة وأئمَّة هٰذه الأمَّة.

﴿٢٤﴾ ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدونَ﴾؛ أي: شاهدوه عياناً وجزموا أنَّه واقعٌ بهم، ﴿فسيعلمون﴾: في ذٰلك الوقت حقيقة المعرفة، ﴿مَنْ أضعفُ ناصراً وأقلُّ عدداً﴾: حين لا ينصرُهُم غيرهم، ولا أنفسهم ينتصِرونَ، وإذْ يُحْشَرون فرادى كما خُلِقوا أوَّلَ مرَّةٍ.

﴿٢٥ ـ ٢٦﴾ ﴿قل﴾ لهم إنْ سألوك فقالوا: متى هٰذا الوعد؟: ﴿إنْ أدري أقريبٌ ما توعدونَ أمْ يجعلُ له ربِّي أمداً﴾؛ أي: غايةً طويلةً؛ فعلمُ ذٰلك عند الله ﴿عالمُ الغيب فلا يُظْهِرُ على غيبِهِ أحداً﴾: من الخلق، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار والغيوب[٣].

﴿٢٧﴾ ﴿إلَّا من ارتضى من رسول﴾؛ أي: فإنَّه يخبره بما اقتضت حكمته أن يخبِرَه به، وذٰلك لأنَّ الرسل ليسوا كغيرهم؛ فإنَّ الله أيَّدهم بتأييدٍ ما أيَّده أحداً من الخلق، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلِّغوه على حقيقته؛ من غير أن تَقْرَبَهُ الشياطينُ فيزيدوا فيه[٤] أو يَنْقُصوا، ولهٰذا قال: ﴿فإنَّه يَسْلُكُ من بينِ يديهِ ومن خلفِهِ رَصَداً﴾؛ أي: يحفظونه بأمر الله.

---

(١) في (ب): «ليس لي من الأمر شيء ولا من التصرف شيء».
(٢) في (ب): «ودعوة الخلق إلى الله». (٣) في (ب): «والغيب».
(٤) في (ب): «أن تتخبطهم الشياطين ولا يزيدوا فيه».

﴿٢٨ ـ ٢٩﴾ ﴿ليعلم﴾ بذلك ﴿أن قد أبلَغوا رسالات ربِّهم﴾: بما جعله لهم من الأسباب، ﴿وأحاط بما لَدَيهم﴾؛ أي: بما عندهم وما أسرُّوه وما أعلنوه، ﴿وأحصى كلَّ شيءٍ عدداً﴾.

وفي هٰذه السورة فوائدُ عديدةٌ[١]:

منها: وجودُ الجنِّ، وأنَّهم [مكلَّفون] مأمورون منهيُّون مجازَوْن بأعمالهم؛ كما هو صريح في هٰذه السورة وغيرها.

ومنها: أنَّ رسول الله ﷺ مبعوثٌ[٢] إلى الجنِّ كما هو مبعوثٌ[٢] إلى الإنس؛ فإنَّ الله صرف نفرَ الجن ليستمعوا ما يوحى إليه ويبلِّغوا قومهم.

ومنها: ذكاء الجنِّ ومعرفتُهم بالحقِّ، وأنَّ الذي ساقهم إلى الإيمان هو ما تحقَّقوه من هداية القرآن وحسن أدبهم في خطابهم.

ومنها: اعتناء الله برسوله وحفظُه لما جاء به؛ فحين ابتدأت بشائر نبوَّته والسماء محروسةٌ بالنجوم، والشياطين قد هربت من[٣] أماكنها، وأزعجت عن مراصدها، وأنَّ الله رَحِمَ به أهل الأرض[٤] رحمةً ما يُقَدَّرُ لها قدرٌ، وأراد بهم ربُّهم رشداً، فأراد أن يظهِرَ من دينه وشرعه ومعرفته في الأرض ما تبتهج به[٥] القلوب، وتفرح به أولو الألباب، وتظهر به شعائرُ الإسلام، وينقمع به أهلُ الأوثان والأصنام.

ومنها: شدَّة حرص الجنِّ على استماعهم للرسول[٦] ﷺ وتراكمهم عليه.

ومنها: أنَّ هٰذه السورة قد اشتملت على الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشركِ، وبيَّنت حالة الخلق، وأن كلَّ أحدٍ منهم لا يستحقُّ من العبادة مثقالَ ذَرَّةٍ؛ لأنَّ الرسول محمداً ﷺ إذا كان لا يملك لأحدٍ نفعاً ولا ضرًّا، بل ولا يملك لنفسه؛ علم أن الخلق كلَّهم كذٰلك؛ فمن الخطأ والظلم[٧] اتِّخاذ مَنْ هٰذا وصفه إلٰهاً آخر[٨].

---

(١) في (ب): «فوائد كثيرة».
(٢) في (ب): «رسول».
(٣) في (ب): «عن».
(٤) في (ب): «رحم به الأرض وأهلها».
(٥) في (ب): «له».
(٦) في (ب): «شدة حرص الجن لاستماع الرسول».
(٧) في (ب): «والغلط».
(٨) في (ب): «إلٰهاً مع الله».

ومنها: أنَّ علوم الغيوب[١] قد انفرد الله بعلمها؛ فلا يعلمها أحدٌ من الخلق؛ إلَّا من ارتضاه الله واختصَّه[٢] بعلم شيء منها.

تم تفسيرها. والحمد لله رب العالمين[٣].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة المزمل

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ[٤] أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِى وَٱلْمُكَذِّبِينَ أُو۟لِى ٱلنَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾﴾.

﴿١ ـ ٥﴾ المزَّمِّل: المتغطي بثيابه كالمدَّثِّر، وهٰذا الوصف حصل من رسول الله ﷺ حين أكرمه الله برسالته، وابتدأه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه[٥]، فرأى أمراً لم يَرَ مثلَه ولا يقدِرُ على الثَّبات عليه[٦] إلَّا المرسلون، فاعتراه عند ذٰلك[٧] انزعاجٌ، حين رأى جبريلَ عليه السلام، فأتى إلى أهله، فقال: «زمِّلوني زمِّلوني»، وهو ترعَدُ فرائصُه، ثم جاءه جبريلُ، فقال: اقرأ. فقال: «ما أنا بقارىءٍ». فغطه حتَّى بلغ منه الجهدَ، وهو يعالجه على القراءة، فقرأ ﷺ[٨].

ثم ألقى الله عليه الثباتَ، وتابع عليه الوحيَ، حتى بَلَغَ مَبْلَغاً ما بَلَغَه أحدٌ من المرسلين؛ فسبحان الله ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوَّته ونهايتها! ولهٰذا

---

(١) في (ب): «علوم الغيب». (٢) في (ب): «وخصَّه».
(٣) في (ب): «تمَّ تفسير سورة قل أوحي إليَّ. ولله الحمد».
(٤) في (أ): إلى قوله: ﴿ومهلهم قليلا﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٥) في (ب): «وابتدأه بإنزال جبريل إليه».
(٦) في (ب): «له». (٧) في (ب): «فاعتراه في ابتداء ذلك».
(٨) كما في «صحيح البخاري» (٣) ومسلم (١٦٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

خاطبه الله بهٰذا الوصف الذي وُجِدَ منه في أول أمره، فأمره هنا بالعباداتِ المتعلِّقة به، ثم أمره بالصبر على أذيَّة قومه[١]، ثم أمر بالصَّدْع بأمره وإعلان دعوتهم إلى الله، فأمره هنا بأشرف العبادات، وهي الصلاة، وبآكدِ الأوقات وأفضلها، وهو قيامُ الليل. ومن رحمته [تعالى] أنَّه لم يأمرْه بقيام الليل كلِّه، بل قال: ﴿قم الليلَ إلَّا قليلاً﴾. ثم قدَّر ذٰلك فقال: ﴿نصفَه أو انقُصْ منه﴾؛ أي: من النصف ﴿قليلاً﴾: بأن يكون الثلث ونحوه، ﴿أو زِدْ عليه﴾؛ أي: على النصف، فيكون نحو الثلثين[٢]، ﴿ورتِّل القرآن ترتيلاً﴾؛ فإنَّ ترتيلَ القرآن به يحصُلُ التدبُّر والتفكُّر وتحريك القلوب به والتعبُّد بآياته والتهيُّؤ والاستعداد التامُّ له؛ فإنَّه قال: ﴿إنَّا سنُلقي عليك قولاً ثقيلاً﴾؛ أي: نوحي إليك هٰذا القرآن الثقيل؛ أي: العظيمة معانيه، الجليلة أوصافه، وما كان بهٰذا الوصف حقيقٌ أن يُتَهَيَّأ له ويُرَتَّل ويُتَفَكَّر فيما يشتمل عليه.

﴿٦﴾ ثم ذكر الحكمة في أمره بقيام الليل، فقال: ﴿إنَّ ناشئةَ الليل﴾؛ أي: الصلاة فيه بعد النوم، ﴿هي أشدُّ وطئاً وأقومُ قيلاً﴾؛ أي: أقرب إلى حصول[٣] مقصود القرآن؛ يتواطأ عليه القلب واللسان، وتقلُّ الشواغل، ويفهم ما يقول، ويستقيم له أمره.

﴿٧﴾ وهٰذا بخلاف النهار؛ فإنَّه لا يحصلُ به هٰذه المقاصد[٤]، ولهٰذا قال: ﴿إنَّ لك في النهار سبحاً طويلاً﴾؛ أي: تردُّداً في[٥] حوائجك ومعاشك يوجبُ اشتغال القلب وعدم تفرُّغه التفرُّغ التامَّ.

﴿٨﴾ ﴿واذكرِ اسمَ ربِّك﴾: شاملٌ لأنواع الذِّكْر كلِّها، ﴿وتبتَّلْ إليه تَبتيلاً﴾؛ أي: انقطع إليه[٦]؛ فإنَّ الانقطاع إلى الله والإنابة إليه هو: الانفصالُ بالقلب عن الخلائق، والاتِّصاف بمحبَّة الله وما[٧] يقرِّب إليه ويدني من رضاه.

﴿٩﴾ ﴿رب المشرق والمغرب﴾: وهٰذا اسم جنس؛ يشمل المشارق والمغارب كلَّها؛ فهو تعالى ربُّ المشارق والمغارب، وما يكون فيها من الأنوار، وما هي

---

(١) في (ب): «أعدائه».
(٢) في (ب): «فيكون الثلثين ونحوها».
(٣) في (ب): «إلى تحصيل».
(٤) في (ب): «هذا المقصود».
(٥) في (ب): «على».
(٦) في (ب): «إلى الله تعالى».
(٧) في (ب): «وكلّ ما».

مصلحةٌ له من العالم العلويِّ والسفليِّ؛ فهو ربُّ كلِّ شيءٍ وخالقُه ومدبِّره. ﴿لا إله إلَّا هو﴾؛ أي: لا معبود إلَّا وجهه الأعلى، الذي يستحقُّ أن يُخَصَّ بالمحبَّة والتعظيم والإجلال والتكريم، ولهذا قال: ﴿فاتَّخِذْه وكيلاً﴾؛ أي: حافظاً ومدبِّراً لأمورك كلِّها.

﴿١٠﴾ فلما أمره الله بالصَّلاة خصوصاً وبالذِّكر عموماً، وذلك يحصل للعبد مَلَكَةٌ قويةٌ في تحمُّل الأثقال وفعل المُشِقِّ[1] من الأعمال؛ أمره بالصبر على ما يقوله[2] المعاندون له ويسبُّونه ويسبُّون ما جاء به، وأن يمضِيَ على أمر الله؛ لا يصدُّه عنه صادٌّ ولا يردُّه رادٌّ، وأن يَهْجُرَهُم هجراً جميلاً، وهو الهجر حيث اقتضت المصلحةُ [الهجرَ]، الذي لا أذيَّة فيه، بل يعاملهم بالهجر والإعراض عن[3] أقوالهم التي تؤذيه، وأمره بجدالهم بالتي هي أحسن.

﴿١١﴾ ﴿وذرني والمكذِّبينَ﴾؛ أي: اتركْني وإيَّاهم، فسأنتقم منهم، وإنْ أمْهَلْتُهم؛ فلا أهمِلُهم. وقوله: ﴿أولي النَّعْمةِ﴾؛ أي: أصحاب النِّعمة والغنى، الذين طَغَوْا حين وسَّع الله عليهم من رزقه وأمدَّهم من فضله؛ كما قال تعالى: ﴿كلاَّ إنَّ الإنسانَ لَيَطْغى . أن رآه استَغْنى﴾.

ثم توعدهم بما عنده من العقاب فقال:

﴿إِنَّ لَدَيْنَآ أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾﴾.

﴿١٢ ـ ١٣﴾ أي: إنَّ عندنا ﴿أنكالاً﴾؛ أي: عذاباً شديداً جعلناه تنكيلاً للذي لا يزال مستمرًّا على ما يغضِبُ الله، ﴿وجحيماً﴾؛ أي: ناراً حامية، ﴿وطعاماً ذا غُصَّةٍ﴾ وذلك لمرارته وبشاعته وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن، ﴿وعذاباً أليماً﴾؛ أي: موجعاً مفظعاً.

﴿١٤﴾ وذلك ﴿يوم ترجُفُ الأرضُ والجبالُ﴾: من الهول العظيم، فكانتِ ﴿الجبالُ﴾: الراسياتُ الصمُّ الصلابُ ﴿كثيباً مَهيلاً﴾؛ أي: بمنزلة الرمل المنهال المنتثر، ثم إنها تُبَسُّ بعد ذلك فتكون كالهباء المنثور.

---

(١) في (ب): «الثقيل».

(٢) في (ب): «على ما يقول فيه».

(٣) في (ب): «عنهم وعن».

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾﴾.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ يقول تعالى: احْمَدوا ربَّكم على إرسال هٰذا النبيِّ الأميِّ العربيِّ البشير النذير الشاهد على الأمَّة بأعمالهم، واشكروه، وقوموا بهٰذه النِّعمة الجليلة، وإيَّاكم أن تَكْفُروا، فتَعْصوا رسولكم، فتكونوا كفرعون حين أرسل الله إليه موسى بن عمران، فدعاه إلى الله، وأمره بالتَّوحيد، فلم يصدِّقْه، بل عصاه، فأخذه الله ﴿أخذاً وبيلاً﴾؛ أي: شديداً بليغاً.

﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾﴾.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ أي: فكيف يحصلُ لكم الفكاكُ والنَّجاة يومَ القيامةِ، اليوم المَهيل أمرُه، العظيمُ خطرُه[1]، الذي يشيِّبُ الولدان وتذوبُ له الجمادات العظام؛ فتنفطر السماء وتنتثر نجومُها[2]. ﴿كان وعدُه مفعولاً﴾؛ أي: لا بدَّ من وقوعه ولا حائل دونه.

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٩﴾ أي: إنَّ هٰذه الموعظة التي نبَّأ الله بها من أحوال يوم القيامةِ وأهوالها تذكرةٌ يتذكَّر بها المتَّقون وينزجر بها المؤمنون. ﴿فمن شاءَ اتَّخذ إلى ربِّه سبيلاً﴾؛ أي: طريقاً موصلاً إليه، وذٰلك باتِّباع شرعه؛ فإنَّه قد أبانه كلَّ البيان وأوضحه غاية الإيضاح، وفي هٰذا دليلٌ على أنَّ الله تعالى أقْدَرَ العبادَ على أفعالهم ومكَّنهم منها، لا كما يقوله الجبريَّةُ: إنَّ أفعالهم تقع بغير مشيئتهم؛ فإنَّ هٰذا خلاف النقل والعقل[3].

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ[4] وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ

---

(١) في (ب): «قدره».

(٢) في (ب): «فتنفطر به السماء وتنتثر به نجومها».

(٣) في (ب): «العقل والنقل».

(٤) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب) ذكر الآية كاملة.

وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

﴿٢٠﴾ ذكر الله في أول هٰذه السورة أنَّه أمر رسولَه بقيام نصفِ الليل أو ثلثيه أو ثلثه[١]، والأصلُ أنَّ أمته أسوةٌ له في الأحكام، وذكر في هٰذا الموضع أنَّه امتثل ذٰلك هو وطائفةٌ معه من المؤمنين. ولما كان تحرير الوقت المأمور به مشقَّة على الناس؛ أخبر أنَّه سهَّل عليهم في ذٰلك غاية التسهيل؛ فقال: ﴿**والله يقدِّرُ الليلَ والنهارَ**﴾؛ أي: يعلم مقاديرهما وما يمضي ويبقى منهما[٢]، ﴿**علم أن لن تُحصوه**﴾؛ أي: لن تعرِفوا مقداره من غير زيادةٍ ولا نقصٍ؛ لكون ذٰلك يستدعي انتباهاً وعناءً زائداً؛ أي: فخفَّف عنكم وأمركم بما تيسَّر عليكم سواء زاد على المقدَّر أو نَقَصَ، ﴿**فاقرؤوا ما تيسَّرَ من القرآن**﴾؛ أي: ممَّا تعرفون ولا[٣] يشقُّ عليكم، ولهٰذا كان المصلِّي بالليل مأموراً بالصلاة ما دام نشيطاً؛ فإذا فَتَرَ أو كسل أو نعس؛ فليسترخ ليأتيَ الصلاةَ بطمأنينةٍ وراحةٍ.

ثم ذكر بعضَ الأسباب المناسبة للتخفيف، فقال: ﴿**علم أن سيكونُ منكم مرضى**﴾: يشقُّ عليهم صلاة نصف الليل أو ثلثيه[٤] أو ثلثه، فليصلِّ المريض ما يسهُلُ عليه، ولا يكون أيضاً مأموراً بالصَّلاة قائماً عند مشَّقة ذٰلك، بل لو شقَّت عليه الصلاةُ النافلةُ؛ فله تركُها، وله أجرُ ما كان يعمل صحيحاً. ﴿**وآخرون يضربون في الأرض يبتغونَ من فضل الله**﴾؛ أي: وعلم أنَّ منكم مسافرين يسافرون للتجارة؛ ليستغنوا عن الخلق، ويتكفَّفوا عنهم[٥]؛ أي: فالمسافر حالُهُ تناسِبُ التخفيف، ولهٰذا خفَّف عنه في صلاة الفرض، فأبيح له جمعُ الصلاتين في وقتٍ واحدٍ وقصرُ الصَّلاة الرُّباعية. وكذلك ﴿**آخرون يقاتِلون في سبيل اللهِ فاقرؤوا ما تيسَّرَ منه**﴾: فذكر تعالى تخفيفين؛ تحفيفاً للصحيح المقيم يراعي فيه نشاطه من غير أن يُكَلَّفَ عليه تحرير الوقت، بل يتحرَّى الصلاة الفاضلة، وهي ثلث الليل بعد نصفه الأول، وتخفيفاً للمريض والمسافر، سواء كان سفرُه للتجارة أو لعبادةٍ من جهادٍ أو حجٍّ أو

---

(١) في (ب): «ثلثه أو ثلثيه».
(٢) في (ب): «وما يمضي منهما ويبقى».
(٣) في (ب): «وممّا لا».
(٤) في (ب): «صلاة ثلثي الليل أو نصفه».
(٥) في (ب): «عن الناس».

غيره[١]؛ فإنَّه [أيضاً] يراعي ما لا يكلِّفه؛ فلله الحمد والثناء؛ حيث لم يجعلْ علينا[٢] في الدين من حرج، بل سهَّل شرعه، وراعى أحوال عباده ومصالح دينهم وأبدانهم ودنياهم.

ثم أمر العباد بعبادتين هما أمُّ العبادات وعمادُها: إقامة الصلاة التي لا يستقيمُ الدين إلَّا بها، وإيتاءُ الزَّكاة التي هي برهانُ الإيمان وبها تحصُلُ المواساة للفقراء والمساكين، فقال[٣]: ﴿وأقيموا الصلاة﴾؛ أي: بأركانها وحدودها وشروطها وجميع مكمِّلاتها[٤]، ﴿وأقرِضوا الله قرضاً حسناً﴾؛ أي: خالصاً لوجه الله بنيَّة صادقةٍ وتثبيتٍ من النفس ومالٍ طيِّبٍ، ويدخُلُ في هٰذا الصدقة الواجبة والمستحبَّة.

ثم حثَّ على عموم الخير وأفعاله، فقال: ﴿وما تقدِّموا لأنفسكم من خيرٍ تجِدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً﴾: الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائةِ ضعفٍ إلى أضعافٍ كثيرة. وليعلمْ أنَّ مثقال ذرَّةٍ في هٰذه الدار من الخير[٥] يقابله أضعافُ أضعافِ الدُّنيا وما عليها في دار النعيم المقيم من اللذَّات والشَّهوات، وأنَّ الخير والبرَّ في هٰذه الدنيا مادةُ الخير والبرِّ في دار القرار وبذرُه وأصلُه وأساسُه. فوا أسفاه على أوقاتٍ مضت في الغفلات! ووا حسرتاه على أزمانٍ تقضَّت في غير[٦] الأعمال الصالحات! ووا غوثاه من قلوبٍ لم يؤثِّر فيها وعظُ بارئها ولم ينجَعْ فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها[٧]! فلك اللهم الحمدُ وإليك المشتكى وبك المستغاث ولا حول ولا قوَّة إلَّا بك.

﴿واستغفروا الله إنَّ الله غفورٌ رحيمٌ﴾: وفي الأمر بالاستغفار بعد الحثِّ على أفعال الطاعة والخير فائدةٌ كبيرةٌ، وذٰلك أنَّ العبد لا[٨] يخلو من التقصير فيما أُمِرَ به: إما أنْ لا يفعلَه أصلاً، أو يفعله على وجهٍ ناقص، فأُمِرَ بترقيع ذٰلك بالاستغفار؛ فإنَّ العبد يذنِبُ آناء الليل والنهار؛ فمتى لم يتغمَّدْه الله برحمته ومغفرته؛ فإنَّه هالكٌ.

تم تفسيرها. والحمد لله[٩].

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ب): «من قتالٍ أو جهادٍ أو حجٍّ أو عمرةٍ ونحو ذلك».
(٢) في (ب): «الذي ما جعل على الأمة».
(٣) في (ب): «ولهذا قال».
(٤) في (ب): «بأركانها وشروطها ومكمّلاتها».
(٥) في (ب): «من الخير في هذه الدار».
(٦) في (ب): «بغير».
(٧) في (ب): «منها».
(٨) في (ب): «ما».
(٩) في (ب): «تمَّ تفسير سورة المزمل».

تفسير سورة المدثر

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ۝٧﴾.

﴿١ - ٢﴾ تقدَّم أنَّ المزَّمِّل والمدَّثر بمعنى واحد، وأنَّ الله أمر رسوله ﷺ بالاجتهاد في عبادات[١] الله القاصرة والمتعدِّية، فتقدَّم هناك الأمر له بالعبادات الفاضلة القاصرة، والصبر على أذى قومه، وأمره هنا بالإعلان بالدَّعوة والصَّدْع بالإنذار، فقال: ﴿قُمْ﴾؛ أي: بجدٍّ ونشاطٍ ﴿فَأَنذِرْ﴾: الناس بالأقوال والأفعال التي يحصلُ بها المقصودُ وبيانُ حال المنذَر عنه ليكون ذٰلك أدعى لتركه.

﴿٣﴾ ﴿وربَّك فكبِّرْ﴾؛ أي: عظِّمه بالتوحيد، واجعل قصدك في إنذارك وجه الله وأن يعظِّمه العباد، ويقوموا بعبادته.

﴿٤﴾ ﴿وثيابَكَ فطَهِّرْ﴾: يُحتمل أنَّ المراد بالثياب[٢] أعماله كلها. وبتطهيرها: تخليصها، والنُّصح بها، وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات والمنقصات من شركٍ ورياء ونفاق وعُجْبٍ وتكبُّر وغفلةٍ وغير ذٰلك مما يؤمَرُ العبد باجتنابه في عباداته، ويدخل في ذٰلك تطهير الثياب من النجاسة؛ فإنَّ ذٰلك من تمام التطهير للأعمال، خصوصاً في الصلاة، التي قال كثيرٌ من العلماء: إنَّ إزالة النجاسة عنها شرطٌ من شروطها[٣].

ويُحتمل أنَّ المراد بثيابه الثياب المعروفة؛ أنَّه مأمورٌ بتطهيرها عن جميع النجاسات في جميع الأوقات، خصوصاً عند الدُّخول في الصلوات.

﴿٥﴾ وإذا كان مأموراً بطهارة[٤] الظَّاهر؛ فإنَّ طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن: ﴿والرُّجْزَ فاهْجُرْ﴾: يُحتمل أنَّ المراد بالرجز الأصنام والأوثان التي عُبِدَتْ مع الله، فأمره بتركها والبراءة منها ومما نُسِبَ إليها من قول أو عمل، ويُحتمل أنَّ المرادَ بالرُّجز أعمالُ الشرِّ كلُّها وأقوالُه، فيكون أمراً له بترك الذُّنوب صغارها

---

(١) في (ب): «عبادة».
(٢) في (ب): «بثيابه».
(٣) في (ب): «من شروط الصلاة».
(٤) في (ب): «بتطهير».

وكبارها[١] ظاهرها وباطنها، فيدخل في هٰذا الشرك فما دونه[٢].

﴿٦﴾ ﴿ولا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾؛ أي: لا تمنُنْ على الناس بما أسديت إليهم من النعم الدينيَّة والدنيويَّة، فتستكثر بتلك المنَّة، وترى لك الفضل عليهم[٣]، بل أحسِنْ إلى الناس مهما أمكنك، وانْسَ عندهم إحسانَك، واطلُبْ أجرك من الله تعالى[٤]، واجعلْ مَن أحسنتَ إليه وغيره على حدٍّ سواء.

وقد قيل: إنَّ معنى هٰذا ألَّا تعطي أحداً شيئاً وأنت تريدُ أن يكافِئَك عليه بأكثر منه، فيكون هٰذا خاصًّا بالنبيِّ ﷺ.

﴿٧﴾ ﴿ولربِّكَ فاصْبِرْ﴾؛ أي: احتسبْ بصبرك واقصدْ به وجهَ الله تعالى.

فامتثل رسولُ الله ﷺ لأمر ربِّه، وبادر فيه[٥]، فأنذر الناس وأوضح لهم بالآياتِ البيناتِ جميع المطالب الإلٰهيَّة، وعظَّم الله تعالى، ودعا الخلق إلى تعظيمه، وطهَّر أعماله الظاهرة والباطنة من كل سوءٍ، وهجر كلَّ ما يُعْبَدُ من دون الله[٦] وما يُعْبَدُ معه من الأصنام وأهلها والشرِّ وأهله، وله المنَّة على الناس بعد منَّة الله، من غير أن يطلبَ عليهم بذٰلك[٧] جزاءً ولا شكوراً، وصبر لربِّه[٨] أكمل صبر: فصبر على طاعة الله، وعن معاصيه، وصبر على أقداره[٩] المؤلمة، حتى فاق أولي العزم من المرسَلين. صلواتُ الله وسلامُه عليه وعليهم أجمعين.

﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝٩ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ۝١٠﴾.

﴿٨ ـ ١٠﴾ أي: فإذا نُفِخَ في الصُّور للقيام من القبور، وجُمِعَ الخلائق[١٠] للبعث والنشور، ﴿فذٰلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ﴾: لكثرة أهواله وشدائده، ﴿على الكافرين غيرُ يسيرٍ﴾؛ لأنَّهم قد أيِسوا من كلِّ خيرٍ وأيقنوا بالهلاك والبَوار. ومفهومُ

---

(١) في (ب): «صغيرها وكبيرها».
(٢) في (ب): «فيدخل في ذلك الشرك وما دونه».
(٣) في (ب): «وترى لك عليهم بإحسانك المنَّة».
(٤) في (ب): «ولا تطلب أجره إلا من الله». (٥) في (ب): «إليه».
(٦) في (ب): «وهجر كلَّ ما يبعد عن الله». (٧) في (ب): «منهم على ذلك».
(٨) في (ب): «للّه».
(٩) في (ب): «وعن معاصي الله وعلى أقدار الله».
(١٠) في (ب): «الخلق».

ذٰلك أنَّه على المؤمنين يسيرٌ؛ كما قال تعالى: ﴿يقول الكافرون هٰذا يومٌ عَسِرٌ﴾.

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾[1] وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۖ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿١١ ـ ٣٠﴾ هٰذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة[2]، المعاند للحقِّ، المبارز[3] لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقَّة، فذمَّه الله ذمًّا لم يذمَّ به غيره[4]، وهٰذا جزاءُ كلِّ مَنْ عانَد الحقَّ ونابذه؛ أنَّ له الخزيَ في الدُّنيا ولَعذاب الآخرة أخزى، فقال:

﴿ذَرْني ومَن خلقتُ وحيداً﴾؛ أي: خلقته منفرداً بلا مال ولا أهل ولا غيره، فلم أزل أربِّيه وأعطيه، فجعلت ﴿له مالاً ممدوداً﴾؛ أي: كثيراً، ﴿و﴾ جعلتُ له ﴿بنينَ﴾؛ أي: ذكوراً، ﴿شهوداً﴾؛ أي: حاضرين عنده[5] على الدَّوام، يتمتَّع بهم ويقضي بهم حوائجَه ويستنصِرُ بهم، ﴿ومهَّدْتُ له تمهيداً﴾؛ أي: مكَّنته من الدُّنيا وأسبابها حتى انقادَتْ له مطالِبُه وحصل له[6] ما يشتهي ويريدُ. ﴿ثم﴾: مع هٰذه النعم والإمدادات ﴿يَطْمَعُ أن أزيدَ﴾؛ أي: يطمع أن ينال نعيم الآخرة كما نال نعيم الدنيا، ﴿كلاَّ﴾؛ أي: ليس الأمر كما طمع، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه، وذٰلك ﴿إنَّه[7] كان لآياتنا عنيداً﴾: عرفها[8] ثم أنكرها، ودعتْه إلى الحقِّ فلم يَنْقَدْ

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.
(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٥٠٦) وصححه ووافقه الذهبي.
(٣) في (ب): «معاند الحق والمبارز».
(٤) في (ب): «لم يذمَّه غيره».
(٥) في (ب): «دائماً حاضرين عنده».
(٦) في (ب): «حصل على».
(٧) في (ب): «لأنه».
(٨) في (ب): «أي: معانداً عرفها».

لها، ولم يكفِهِ أنَّه أعرض عنها وتولَّى[١]، بل جعل يحاربُها ويسعى في إبطالها، ولهٰذا قال عنه: ﴿إنَّه فَكَّر﴾؛ أي: في نفسه. ﴿وقدَّر﴾: ما فكَّر فيه؛ ليقولَ قولاً يبطِلُ به القرآن، ﴿فقُتِلَ كيف قدَّر. ثم قُتِلَ كيف قدَّر﴾؛ لأنَّه قدَّر أمراً ليس في طوره، وتسوَّر على ما لا ينالُه هو ولا أمثاله، ﴿ثم نَظَرَ﴾: ما يقول، ﴿ثم عَبَسَ وبَسَرَ﴾: في وجهه وظاهره نفرةً عن الحقِّ وبُغضاً له، ﴿ثم أدبر﴾؛ أي: تولَّى، ﴿واستكبر﴾: نتيجة سعيه الفكريِّ والعمليِّ والقوليِّ، ﴿فقال إنْ هٰذا إلَّا سحرٌ يُؤثَرُ. إنْ هٰذا إلَّا قولُ البشرِ﴾؛ أي: ما هٰذا كلام الله، بل كلام البشر، وليس أيضاً كلام البشر الأخيار، بل كلام الأشرار منهم والفجَّار[٢] من كل كاذبٍ سحَّارٍ، فتبًّا له! ما أبعده من الصواب! وأحراه بالخسارة والتَّباب! كيف يدور في الأذهان أو يتصوَّره ضميرُ أيِّ[٣] إنسان أن يكون أعلى الكلام وأعظمه كلام الربِّ الكريم الماجد العظيم[٤] يشبِهُ كلام المخلوقين الفقراء الناقصين؟! أم كيف يتجرَّأ هٰذا الكاذب العنيد على وصفه بهٰذا الوصف لكلام الله تعالى[٥]؛ فما حقُّه إلَّا العذاب الشديد [والنكال]، ولهٰذا قال تعالى: ﴿سأُصْليه سَقَرَ. وما أدراك ما سَقَرُ. لا تُبقي ولا تَذَرُ﴾؛ أي: لا تبقي من الشدَّة ولا على المعذَّب شيئاً إلا وبَلَغَتْه. ﴿لوَّاحةٌ للبشر﴾؛ أي: تلوحهم وتُصليهم في عذابها وتقلقهم بشدَّة حرِّها وقرِّها. ﴿عليها تسعةَ عشرَ﴾: من الملائكة، خزنة لها، غلاظٌ شدادٌ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمرون.

﴿٣١﴾ ﴿وما جعلنا أصحاب النارِ إلَّا ملائكةً﴾: وذٰلك لشدَّتهم وقوَّتهم، ﴿وما جعلنا عِدَّتهم إلَّا فتنةً للذين كفروا﴾: يحتمل أنَّ المراد؛ إلَّا لعذابهم وعقابهم في الآخرة ولزيادة نَكالهم فيها، والعذاب يسمَّى فتنة؛ كما قال تعالى: ﴿يومَ هم على النَّارِ يُفْتَنونَ﴾.

ويُحتمل أنَّ المراد أنَّا ما أخبرناكم بعدَّتهم إلَّا لنعلم من يصدِّق ممَّن[٦] يكذِّب. ويدلُّ على هٰذا ما ذكره بعده في قوله: ﴿ليستيقِنَ الذين أوتوا الكتاب ويزدادَ الذين آمنوا إيماناً﴾: فإنَّ أهل الكتاب إذا وافق ما عندَهم وطابَقَه؛ ازدادَ يقينُهم بالحقِّ، والمؤمنون كلَّما أنزل الله آيةً، فآمنوا بها وصدَّقوا؛ ازداد إيمانُهم، ﴿ولا يرتابَ الذين أوتوا الكتابَ والمؤمنون﴾؛ أي: ليزول عنهم الريبُ والشكُّ، وهٰذه مقاصدُ جليلةٌ يعتني بها أولو الألباب، وهي السعي في اليقين وزيادة الإيمان في كلِّ وقتٍ

---

(١) في (ب): «أعرض وتولى عنها».
(٢) في (ب): «بل كلام الفجار منهم والأشرار».
(٣) في (ب): «كلِّ».
(٤) في (ب): «الرب العظيم الماجد الكريم».
(٥) في (ب): «على وصفه كلام المبدئ المعيد».
(٦) في (ب): «ومن».

وكلِّ مسألةٍ من مسائل الدين، ودفعِ الشكوك والأوهام التي تَعْرِضُ في مقابلة الحقِّ، فجعل ما أنزله على رسولِهِ محصِّلاً لهٰذه المقاصد[١] الجليلة، ومميزاً للصادقين من الكاذبين[٢]، ولهٰذا قال: ﴿وليقولَ الذين في قلوبِهِم مرضٌ﴾؛ أي: شكٌّ وشبهةٌ ونفاقٌ، ﴿والكافرون ماذا أرادَ الله بهٰذا مثلاً﴾: وهٰذا على وجه الحيرة والشكِّ منهم والكفر بآيات الله، وهٰذا وذاك من هداية الله لمن يهديه وإضلاله لمن يُضِلُّه، ولهٰذا قال: ﴿كذٰلك يُضِلُّ الله مَن يشاءُ ويَهْدي مَن يشاءُ﴾: فمن هداه الله؛ جعل ما أنزل[٣] على رسوله رحمةً في حقِّه وزيادةً في إيمانه ودينه، ومن أضلَّه؛ جعل ما أنزله على رسوله زيادةَ شقاءٍ عليه وحيرةً وظلمةً في حقِّه، والواجب أن يُتَلَقى ما أخبر الله به[٤] ورسولُه بالتسليم، فإنه ﴿لا يعلمُ جنودَ ربِّك﴾ من الملائكة وغيرهم ﴿إلَّا هو﴾: فإذا كنتُم جاهلين بجنوده، وأخبركم بها العليم الخبير؛ فعليكم أن تصدِّقوا خبره من غير شكٍّ ولا ارتياب، ﴿وما هي إلَّا ذِكْرى للبشرِ﴾؛ أي: وما هٰذه الموعظة والتذكار مقصوداً به العبث واللعب، وإنما المقصود به أن يتذكَّر به البشر ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرُّهم فيتركونه.

﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾[٥].

﴿٣٢ ـ ٣٤﴾ ﴿كلَّا﴾: هنا بمعنى حقًّا، أو بمعنى ألا الاستفتاحية، فأقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقتَ إدباره، والنهارِ وقتَ إسفاره؛ لاشتمال المذكورات على آيات الله

---

(١) في (ب): «الفوائد».
(٢) في (ب): «للكاذبين من الصادقين».
(٣) في (ب): «ما أنزله الله».
(٤) في (ب): «به الله».
(٥) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

العظيمة الدالَّة على كمال قدرةِ الله وحكمته وسعة سلطانه وعموم رحمته وإحاطة علمه.

﴿٣٥ ـ ٣٧﴾ والمقسَمُ عليه قوله: ﴿إنَّها لإحدى الكُبَرِ﴾؛ أي: إنَّ النار لإحدى[١] العظائم الطامَّة والأمور الهامَّة؛ فإذا أعلمناكم بها وكنتُم على بصيرةٍ من أمرها؛ فمن شاء منكم أن يتقدَّم فيعمل بما يقرِّبُه إلى الله ويُدْنيه من رضاه ويُزْلفه من دار كرامته، أو يتأخَّر عمَّا خُلِقَ له وعمَّا يحبُّه الله ويرضاه، فيعمل بالمعاصي، ويتقرَّب إلى جهنَّم؛ كما قال تعالى: ﴿وقلِ الحقُّ من ربِّكم فَمَن شاء فَلْيُؤمِن ومَن شاءَ فَلْيَكْفُرْ...﴾ الآية.

﴿٣٨ ـ ٤٨﴾ ﴿كلُّ نفس بما كسبتْ﴾: من أفعال الشرِّ وأعمال السوء[٢] ﴿رهينةٌ﴾: بها موثقةٌ بسعيها، قد أُلْزِمَ[٣] عنقها وغُلَّ في رقبتها واستوجبت به العذاب، ﴿إلَّا أصحابَ اليمين﴾: فإنَّهم لم يرتهنوا، بل أُطلقوا وفرحوا ﴿في جناتٍ يتساءلونَ. عن المجرمينَ﴾؛ أي: في جناتٍ قد حصل لهم فيها[٤] جميع مطلوباتهم وتمَّت لهم الراحةُ والطمأنينة، حتى أقبلوا يتساءلون، فأفضتْ بهم المحادثة أن سألوا عن المجرمين؛ أيُّ حال وصلوا إليها؟ وهل وَجَدوا ما وعَدَهم الله [تعالى]؟ فقال بعضهم لبعضٍ هل أنتم مُطَّلعونَ عليهم، فاطَّلعوا عليهم في وسطِ الجحيم يعذَّبون، فقالوا لهم: ﴿ما سَلَككم في سَقَرَ﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ أدخلكم فيها؟ وبأيِّ ذنبٍ اسْتَحَقيْتُموها؟ فقالوا: ﴿لم نَكُ من المصلِّينَ. ولم نكُ نطعِمُ المسكينَ﴾: فلا إخلاص للمعبودِ ولا إحسانَ ولا نفع للخلق المحتاجين، ﴿وكنَّا نخوضُ مع الخائضينَ﴾؛ أي: نخوض بالباطل ونجادل به الحقَّ، ﴿وكنَّا نكذِّبُ بيوم الدِّينِ﴾: هٰذه آثار الخوض بالباطل، وهو التَّكذيب بالحقِّ، ومن أحقِّ الحقِّ يوم الدين، الذي هو محلُّ الجزاء على الأعمال وظهور مُلك الله وحُكمه العدل لسائر الخلق، فاستمرَّ عَمَلُنا على هٰذا المذهب الباطل[٥] ﴿حتَّى أتانا اليقين﴾؛ أي: الموت، فلما ماتوا على الكفر؛ تعذَّرت حينئذٍ عليهم الحِيَلُ، وانسدَّ في وجوههم باب الأمل. ﴿فما تَنفَعُهم شفاعةُ الشَّافعين﴾؛ لأنَّهم لا يشفعون إلَّا لِمَنِ ارتضى، وهٰؤلاء لا يرضى الله أعمالهم.

---

(١) في (ب): «﴿إنها﴾؛ أي: النار ﴿لإحدى الكبر﴾، أي: لإحدى...».
(٢) في (ب): «من أعمال السوء وأفعال الشرِّ».
(٣) في (ب): «ما لزم».
(٤) في (ب): «بها».
(٥) في (ب): «فاستمرينا على هذا المذهب الفاسد».

﴿٤٩ ـ ٥٣﴾ فلمَّا بيَّن الله مآل المخالفين وبيَّن ما[١] يفعل بهم؛ عطف على الموجودين بالعتاب واللوم، فقال: ﴿فما لهم عن التَّذْكِرَةِ معرِضينَ﴾؛ أي: صادِّين غافلين عنها، ﴿كأنَّهم﴾: في نفرتِهم الشديدة منها ﴿حُمُرٌ مستنفرةٌ﴾؛ أي: [كأنهم] حمُرُ وحشٍ نفرتْ؛ فنفَّر بعضُها بعضاً فزاد عَدْوُها، ﴿فرَّتْ من قَسْوَرَةٍ﴾؛ أي: من صائدٍ ورام يريدها أو من أسدٍ ونحوه، وهٰذا من أعظم ما يكون من النُّفور عن الحقِّ، ومع هٰذا النفور والإعراض[٢] يدَّعون الدَّعاوي الكبار؛ فيريد ﴿كلُّ﴾ واحد ﴿منهم أن يُؤتى صُحُفاً منشَّرةً﴾: نازلة عليه من السماء؛ يزعم أنَّه لا ينقاد للحقِّ؛ إلَّا بذٰلك، وقد كذَّبوا؛ فإنَّهم لو جاءتهم كلُّ آيةٍ؛ لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم؛ لأنَّهم[٣] جاءتهم الآياتُ البيناتُ، التي تبيِّن الحقَّ وتوضِّحه؛ فلو كان فيهم خيرٌ؛ لآمنوا، ولهٰذا قال: ﴿كلَّا﴾؛ أي: لا نعطيهم[٤] ما طلبوا، وهم ما قصدوا بذٰلك إلَّا التعجيز، ﴿بل لا يخافونَ الآخرةَ﴾: فلو كانوا يخافونها؛ لما جرى منهم ما جرى.

﴿٥٤ ـ ٥٦﴾ ﴿كلاَّ [إنَّه][٥] تذكرةٌ﴾: الضمير إمَّا أن يعود على هٰذه السورة أو على ما اشتملتْ عليه من هٰذه الموعظة، ﴿فَمَن شاء ذَكَرَهُ﴾: لأنَّه قد بيَّن له السبيل ووضَح له الدَّليل. ﴿[وما يَذْكُرون][٦] إلَّا أن يشاءَ اللهُ﴾: فإنَّ مشيئة اللَّه[٧] نافذةٌ عامَّةٌ، لا يخرج عنها حادثٌ قليلٌ ولا كثيرٌ؛ ففيها ردٌّ على القدريَّة، الذين لا يُدْخِلون أفعال العباد تحت مشيئة الله، والجبريَّة، الذين يزعمون أنَّه ليس للعبد مشيئةٌ ولا فعلٌ حقيقةً، وإنَّما هو مجبور على أفعاله، فأثبت تعالى للعباد مشيئةً حقيقةً وفعلاً، وجعل ذٰلك تابعاً لمشيئته، و﴿وهو أهلُ التَّقوى وأهل المغفرةِ﴾؛ أي: هو أهل أن يُتَّقى ويُعبد؛ لأنَّه الإلٰه الذي لا تنبغي العبادة إلَّا له، وأهلٌ أن يَغْفِرَ لمن اتَّقاه واتَّبع رضاه.

تمت. ولله الحمد والمنة[٨].

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ب): «ورهَّب مما».
(٢) في (ب): «ومع هذا الإعراض وهذا النفور».
(٣) في (ب): «فإنَّهم».
(٤) في (ب): «﴿كلَّا﴾: أن نعطيهم».
(٥) في النسختين: «إنها». وعليه فسَّرها. والله أعلم.
(٦) في (أ): «وما تشاؤون». وفي (ب): «وما يشاؤون».
(٧) في (ب): «مشيئته».
(٨) في (ب): «تم تفسير سورة المدثر ولله الحمد».

تفسير سورة القيامة

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ[1] ۝٢ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۝٣ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ۝٤ بَلۡ يُرِيدُ ٱلۡإِنسَٰنُ لِيَفۡجُرَ أَمَامَهُۥ ۝٥ يَسۡـَٔلُ أَيَّانَ يَوۡمُ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝٦﴾.

﴿١﴾ ليست ﴿لا﴾ ها هنا نافية ولا زائدة، وإنَّما أتي بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها، ولكثرة الإتيان بها مع اليمين لا يستغرب الاستفتاح بها، وإن لم تكن في الأصل موضوعة للاستفتاح؛ فالمقسم به في هٰذا الموضع هو المقسَم عليه، وهو البعث بعد الموت، وقيام الناس من قبورهم، ثم وقوفهم ينتظرون ما يَحْكُمُ به الربُّ عليهم.

﴿٢﴾ ﴿ولا أقسم بالنَّفس اللَّوَّامةِ﴾: وهي جميع النفوس الخيِّرة والفاجرة، سميِّت لوَّامةً لكثرة تلوُّنها وتردُّدها[2] وعدم ثبوتها على حالةٍ من أحوالها، ولأنَّها عند الموت تلوم صاحبها على ما فعلت[3]، بل نفسُ المؤمن تلومُ صاحبها في الدُّنيا على ما حصل منه من تفريطٍ أو تقصيرٍ في حقٍّ من الحقوق أو غفلةٍ، فجمع بين الإقسام بالجزاء وعلى الجزاء وبين مستحقِّ الجزاء.

﴿٣ ـ ٤﴾ ثم أخبر مع هٰذا أنَّ بعض المعاندين يكذِّبون[4] بيوم القيامة، فقال: ﴿أيحسبُ الإنسانُ أن لن نَجْمَعَ عظامَه﴾: بعد الموت؛ كما قال [في الآية الأخرى]: ﴿قال مَن يُحيي العظامَ وهي رميمٌ﴾، فاستبعد من جهله وعدوانه قدرةَ الله على خلق عظامه التي هي عمادُ البدن، فردَّ عليه بقوله: ﴿بلى قادرينَ على أن نُسَوِّيَ بَنانَه﴾؛ أي: أطراف أصابعه وعظامه، وذٰلك مستلزمٌ[5] لخلق جميع أجزاء البدن؛ لأنَّها إذا وُجِدت الأنامل والبنان؛ فقد تمَّتْ خلقة الجسد.

﴿٥ ـ ٦﴾ وليس إنكارُه لقدرة الله تعالى قصوراً بالدَّليل الدَّالِّ على ذٰلك، وإنَّما وقع ذٰلك منه لأنَّ إرادته وقصده التكذيبُ[6] بما أمامه من البعث. والفجور: الكذب مع التعمُّد.

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿يسأل أيان يوم القيامة﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «ترددها وتلومها».

(٣) في (ب): «ما عملت».

(٤) في (ب): «يكذب».

(٥) في (ب): «المستلزم لذلك».

(٦) في (ب): «وإنما ذلك منه أن قصده وإرادته أن يكذب».

ثم ذكر أحوال القيامة فقال:

﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ[1] ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ۝١٣ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ۝١٥﴾.

﴿٧ ـ ١٠﴾ أي: ﴿فإذا﴾ كانت القيامة؛ برقت الأبصار من الهول العظيم وشخصت فلا تطرف؛ كما قال تعالى: ﴿إنَّما يؤخِّرُهم ليوم تَشْخَصُ فيه الأبصارُ. مهطِعين مُقْنِعي رؤوسهم لا يرتدُّ إليهم طرفُهم وأفئِدَتُهم هواءٌ﴾، ﴿وخسف القمر﴾؛ أي: ذهب نورُه وسُلطانه، ﴿وجُمِعَ الشمسُ والقمرُ﴾: وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى، فيجمع الله بينهما يوم القيامةِ، ويُخسف القمر، وتكوَّر الشمس، ثم يقذفان في النار؛ ليرى العباد أنَّهما عبدان مسخَّران، وليرى مَنْ عَبَدَهما أنَّهم كانوا كاذبين، ﴿يقول الإنسانُ﴾: حين يرى تلك القلاقل المزعجات[2]: ﴿أين المفرُّ﴾؛ أي: أين الخلاص والفكاك[3] ممَّا طرقنا وألمَّ بنا[4]؟

﴿١١ ـ ١٣﴾ ﴿كلاَّ لا وَزَرَ﴾؛ أي: لا ملجأ لأحدٍ دون الله، ﴿إلى ربِّكَ يومئذٍ المستقرُّ﴾: لسائر العباد، فليس في إمكان أحدٍ أن يستترَ أو يهرب عن ذلك الموضع، بل لا بدَّ من إيقافه؛ ليجزى بعمله، ولهٰذا قال: ﴿يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قَدَّمَ وأخَّرَ﴾؛ أي: بجميع عمله الحسن والسيىء، في أول وقته وآخره، وينبَّأ بخبرٍ لا ينكِرُه.

﴿١٤ ـ ١٥﴾ ﴿بل الإنسانُ على نفسِهِ بصيرةٌ﴾؛ أي: شاهدٌ ومحاسبٌ، ﴿ولو ألقى معاذيرَهُ﴾: فإنَّها معاذيرُ لا تُقبل، بل يقرَّر بعمله[5]، فَيُقِرُّ به؛ كما قال تعالى: ﴿اقرأ كتابَكَ كفى بنفسِكَ اليوم عليك حَسيباً﴾: فالعبدُ وإن أنكر أو اعتذر عمَّا عمله؛ فإنكارُه واعتذارُه لا يفيدانه شيئاً؛ لأنَّه يشهد عليه سمعُه وبصره وجميعُ جوارحه بما كان يعمل، ولأنَّ استعتابه قد ذهب وقتُه وزال نفعُه، ﴿فيومئذٍ لا ينفعُ الذين ظلموا معذِرَتُهم ولا هم يُسْتَعْتَبونَ﴾.

---

(١) في (أ): إلى قوله: ﴿ولو ألقى معاذيره﴾. وفي (ب) ذكر الآيات.

(٢) في (ب): «والمزعجات».

(٣) في (ب): «والفرار».

(٤) في (ب): «وأصابنا».

(٥) في (ب): «لا تقبل ولا تقابل ما يقرَّرُ به العبد».

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٦ ـ ١٩﴾ كان النبيُّ ﷺ إذا جاءه جبريلُ بالوحي وشرع في تلاوته [عليه]؛ بادَرَهُ النبيُّ ﷺ من الحرص قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إيَّاه[١]، فنهاه الله عن ذٰلك، وقال: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه﴾: وقال هنا: **﴿لا تُحرِّكَ به لسانَكَ لِتَعْجَلَ به﴾**.

ثم ضمن له تعالى أنَّه لا بدَّ أن يحفظَه ويقرأه ويجمعه الله في صدره، فقال: **﴿إنَّ علينا جمعَه وقرآنه﴾**؛ فالحرص الذي في خاطرك إنَّما الداعي له حذر الفوات والنسيان؛ فإذا ضَمِنَه الله لك؛ فلا موجب لذٰلك، **﴿فإذا قَرَأناه فاتَّبِعْ قرآنه﴾**؛ أي: إذا أكمل جبريلُ ما يوحى إليك[٢]؛ فحينئذٍ اتَّبع ما قرأه فاقرأه[٣]، **﴿ثمَّ إنَّ علينا بيانه﴾**؛ أي: بيان معانيه. فوعده بحفظ لفظه وحفظ معانيه، وهٰذا أعلى ما يكون، فامتثل ﷺ لأدب ربِّه، فكان إذا تلا عليه جبريلُ القرآن بعد هٰذا؛ أنصتَ له؛ فإذا فرغ؛ قرأه.

وفي هٰذه الآية أدبٌ لأخذ العلم: أن لا يبادر المتعلِّم[٤] للعلم قبل أن يفرغ المعلِّم من المسألة التي شرع فيها؛ فإذا فرغ منها؛ سأله عمَّا أشكل عليه. **وكذٰلك** إذا كان في أول الكلام ما يوجب الردَّ أو الاستحسان أن لا يبادِرَ بردِّه أو قَبوله قبل[٥] الفراغ من ذٰلك الكلام؛ ليتبيَّن ما فيه من حقٍّ أو باطل، وليفهمه فهماً يتمكَّن فيه من الكلام فيه على وجه الصواب[٦]. **وفيها** أنَّ النبيَّ ﷺ كما بيَّن للأمَّة ألفاظ الوحي؛ فإنَّه قد بيَّن لهم معانيه.

﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾﴾.

---

(١) كما في «صحيح البخاري» (٤٩٢٧)، ومسلم (٤٤٨).
(٢) في (ب): «إذا أكمل جبريل قراءة ما أوحى الله إليك».
(٣) في (ب): «واقرأه».
(٤) في (ب): «المتعلم المعلم». وعدل عنها الشيخ في هامش (أ) كما هو مثبت.
(٥) في (ب): «حتى».
(٦) في (ب): «وليفهمه فهماً يتمكن به من الكلام عليه».

﴿٢٠ ـ ٢١﴾ أي: هٰذا الذي أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنَّكم ﴿تحبُّونَ العاجلةَ﴾، وتسعون فيما يحصِّلها وفي لذَّاتها وشهواتها، وتؤثرونها على الآخرة، فتذرون العمل لها؛ لأنَّ الدُّنيا نعيمها ولذاتها عاجلة، والإنسان مولعٌ بحبِّ العاجل، والآخرة متأخِّر ما فيها من النعيم المقيم؛ فلذٰلك غفلتم عنها وتركتُموها كأنَّكم لم تُخلقوا لها وكأنَّ هٰذه الدار هي دار القرار التي تُبْذَلُ فيها نفائس الأعمار ويُسعى لها آناء الليل والنهار، وبهٰذا انقلبت عليكم الحقيقة، وحصل من الخسار ما حصل؛ فلو آثرتُم الآخرة على الدُّنيا ونظرتم العواقب[١] نظر البصير العاقل؛ لأنجحتم وربحتم ربحاً لا خسار[٢] معه، وفزتم فوزاً لا شقاء يصحبه.

﴿٢٢ ـ ٢٣﴾ ثم ذكر ما يدعو إلى إيثار الآخرة ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها، فقال في جزاء المؤثرين للآخرة على الدُّنيا: ﴿وجوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ﴾؛ أي: حسنة بهيَّة لها رونقٌ ونورٌ مما هم فيه من نعيم القلوب وبهجة النفوس ولذَّة الأرواح، ﴿إلى ربِّها ناظرةٌ﴾؛ أي: ينظرون إلى ربِّهم[٣] على حسب مراتبهم؛ منهم مَنْ ينظره كلَّ يوم بكرةً وعشيًّا، ومنهم من ينظره كلَّ جمعة مرةً واحدةً، فيتمتَّعون بالنَّظر إلى وجهه الكريم وجماله الباهر الذي ليس كمثله شيءٌ؛ فإذا رأوه؛ نسوا ما هم فيه من النعيم، وحصل لهم من اللَّذَّة والسرور ما لا يمكن التعبير عنه، ونضرت وجوهُهم، فازدادوا[٤] جمالاً إلى جمالهم، فنسأل الله الكريم أن يجعَلنَا معهم.

﴿٢٤ ـ ٢٥﴾ وقال في المؤثرين العاجلة على الآجلة، [و] ﴿وجوهٌ يومئذٍ باسرةٌ﴾؛ أي: معبسةٌ كدرةٌ[٥] خاشعةٌ ذليلةٌ، ﴿تظنُّ أن يُفعَلَ بها فاقرةٌ﴾؛ أي: عقوبةٌ شديدةٌ وعذابٌ أليمٌ؛ فلذٰلك تغيَّرت وجوههم وعبست.

﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ ۜ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾[٦]

---

(١) في (ب): «للعَواقب».
(٢) في (ب): «خسارة».
(٣) في (ب): «تنظر إلى رَبِّها».
(٤) في (ب): «وازدادوا».
(٥) في (ب): «مكدّرة».
(٦) في (أ): إلى آخر السورة. وفي (ب): ذكر الآيات إلى آخر السورة.

﴿يَتَمَطَّىٰ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٢٦ ـ ٣٠﴾ يَعِظُ تعالى عبادَه بذكر المحتضر حال السياق[١]، وأنَّه إذا بلغت روحه[٢] ﴿التراقي﴾: وهي العظام المكتنفة لثُغْرَةِ النَّحر؛ فحينئذٍ يشتدُّ الكربُ، ويطلب كلَّ وسيلةٍ وسببٍ يظنُّ أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهٰذا قال: ﴿وقيلَ مَنْ راقٍ﴾؛ أي: من يرقيه، من الرُّقية؛ لأنَّهم انقطعت آمالهم من الأسباب العاديَّة، فتعلَّقوا بالأسباب الإلٰهيَّة[٣]، ولٰكنَّ القضاء والقدر إذا حتم وجاء؛ فلا مردَّ له، ﴿وظنَّ أنَّه الفراقُ﴾: للدنيا، ﴿والتفَّتِ السَّاقُ بالسَّاق﴾؛ أي: اجتمعت الشدائد والتفَّت، وعظُم الأمر، وصعُب الكرب، وأريد أن تخرجَ الرُّوح من البدن الذي ألفته[٤] ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى ليجازيها[٥] بأعمالها ويقرِّرها بفعالها؛ فهٰذا الزجر الذي ذكره الله يسوقُ القلوب إلى ما فيه نجاتُها ويزجُرُها عمَّا فيه هلاكها.

﴿٣١ ـ ٣٣﴾ ولٰكنَّ المعاند الذي[٦] لا تنفع فيه الآياتُ لا يزال مستمرًّا على غيِّه[٧] وكفره وعناده، ﴿فلا صدَّقَ﴾؛ أي لا آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرِّه، ﴿ولا صلَّى. ولٰكن كذَّبَ﴾: بالحقِّ في مقابلة التصديق، ﴿وتولَّى﴾: عن الأمر والنَّهي، هٰذا وهو مطمئنٌّ قلبهُ غير خائفٍ من ربِّه، بل ﴿ذهب إلى أهله يَتَمَطَّى﴾؛ أي: ليس على بَالِه شيءٌ.

﴿٣٤ ـ ٣٥﴾ ثم توعَّده بقوله: ﴿أولى لك فأولى. ثم أولى لك فأولى﴾: وهٰذه كلماتُ وعيدٍ؛ كرَّرها لتكرير وعيدِهِ.

﴿٣٦ ـ ٤٠﴾ ثم ذكَّر الإنسان بخَلْقِهِ الأوَّل، فقال: ﴿أيحسبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدىً﴾؛ أي: مهملًا[٨] لا يؤمر ولا ينهى ولا يُثاب ولا يعاقب؟ هٰذا حسبانٌ باطلٌ

---

(١) في (ب): «بذكر حال المحتضر عند السياق».
(٢) في (ب): «الروح».
(٣) في (ب): «فلم يبق إلّا الأسباب الإلٰهية».
(٤) في (ب): «أن تخرج الروح التي ألفت البدن».
(٥) في (ب): «حتى يجازيها».
(٦) في (ب): «التي».
(٧) في (ب): «بغيه».
(٨) في (ب): «معطّلًا».

وظنٌّ بالله غير ما يليق بحكمته. ﴿ألم يكُ نطفةً مِن مَنِيٍّ يُمْنى. ثمَّ كان﴾: بعد المنيِّ ﴿علقةً﴾؛ أي: دماً، ﴿فَخَلَقَ﴾: الله منها الحيوان، وسواه؛ أي: أتقنه وأحكمه، ﴿فجعل منه الزوجين الذَّكر والأنثى. أليس ذٰلك﴾؛ أي: الذي خلق الإنسان وطوَّره إلى هٰذه الأطوار المختلفة[1] ﴿بقادرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى؟﴾: بلى إنَّه على كلِّ شيءٍ قديرٌ.

تم تفسير سورة القيامة. والحمد لله ربِّ العالمين. وصلى الله على محمدٍ وسلَّم[2].

❁ ❁ ❁

تفسير سورة الإنسان

وهي مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾.

﴿١﴾ ذكر الله في هٰذه السورة أول حال الإنسان ومنتهاها ومتوسِّطها[3]: فذكر أنَّه مرَّ عليه دهرٌ طويلٌ، وهو الذي قبل وجوده، وهو معدوم، بل ليس مذكوراً.

﴿٢﴾ ثمَّ لمَّا أراد خلقه؛ خلق أباه آدم من طين، ثم جعل نسله متسلسلاً ﴿من نطفةٍ أمشاج﴾؛ أي: ماء مَهينٍ مستقذرٍ، ﴿نبتليه﴾: بذٰلك؛ لنعلم هل يرى حاله الأولى ويتفطن لها أم ينساها وتغرُّه نفسه؟ فأنشأه الله وخَلَقَ له القُوى الظاهرة والباطنة[4]؛ كالسمع والبصر وسائر الأعضاء، فأتمَّها له وجعلها سالمةً يتمكَّن بها من تحصيل مقاصده.

---

(١) في (ب): «الذي خلق الإنسان بهذه الأطوار».

(٢) في (ب): «تمَّ تفسير سورة القيامة. ولله الحمد والمنة. وذلك في ١٦ صفر سنة ١٣٤٤».
وجاء في (ب): قبل تفسير سورة الإنسان ما نصه: «المجلد التاسع من «تيسير الرحيم الرحمٰن في تفسير القرآن» لجامعه الفقير إلى الله عبد الرحمٰن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي غفر الله له ولوالديه وللمسلمين. آمين».

(٣) في (ب): «ومبتداها ومتوسطها ومنتهاها». (٤) في (ب): «الباطنة والظاهرة».

﴿٣﴾ ثم أرسل إليه الرُّسل، وأنزل عليه الكتب، وهداه الطريق الموصلة إليه[١]، وبيَّنها، ورغَّبه فيها، وأخبره بما له عند الوصول إليه[١]، ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك، ورهَّبه عنها[٢]، وأخبره بما له إذا سلكها، وابتلاه بذلك، فانقسم الناس إلى شاكرٍ لنعمة الله عليه، قائم بما حمله الله من حقوقه. وإلى كفورٍ للنعم[٣] أنعم الله عليه بالنعم الدينيَّة والدنيويَّة، فردَّها وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك. [ثم ذكر تعالى الفريقين عند الجزاء، فقال]:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۠ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ [٤]عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا۟ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۠ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾.

﴿٤﴾ أي: إنَّا هيَّأنا وأرصدنا لمن كفر باللَّه وكذَّب رسله وتجرَّأ على معاصيه،

---

(١) في (ب): «إلى الله».
(٢) في (ب): «منها».
(٣) في (ب): «النعمة الله عليه».
(٤) في (أ): طمس. وفي (ب): إلى آخر الثواب.

﴿سلاسل﴾: في نار جهنَّم؛ كما قال تعالى: ﴿ثمَّ في سلسلةٍ ذَرْعُها سبعونَ ذِراعاً فاسلكوه﴾، ﴿وأغلالاً﴾: تُغَلُّ بها أيديهم إلى أعناقهم ويوثقون بها، ﴿وسعيراً﴾؛ أي: ناراً تستعر بها أجسامُهم وتُحرق بها أبدانُهم، كلَّما نَضِجَتْ جلودُهم؛ بدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب، وهٰذا العذاب الدَّائم مؤبَّدٌ لهم[١]، مخلَّدون فيه سرمداً.

﴿٥﴾ وأمَّا ﴿الأبرار﴾، وهم الذين بَرَّتْ قلوبُهم بما فيها من معرفة الله ومحبَّته[٢] والأخلاق الجميلة؛ فبرَّت أعمالُهم[٣]، واستعملوها بأعمال البرِّ، فأخبر[٤] أنَّهم ﴿يشربون من كأسٍ﴾؛ أي: شرابٍ لذيذٍ من خمرٍ [قد] مُزِجَ بكافورٍ؛ أي: خلط به[٥] ليبرِّده ويكسر حدَّته، وهٰذا الكافور في غاية اللَّذَّة، قد سلم من كلِّ مكدِّرٍ ومنغِّص موجودٍ في كافور الدُّنيا؛ فإنَّ الآفة الموجودة في الدُّنيا تعدم من الأسماء التي ذكرها الله في الجنة[٦]؛ كما قال تعالى: ﴿في سِدْرٍ مخضودٍ. وطلح منضودٍ﴾، ﴿وأزواجٌ مطهرةٌ﴾، ﴿لهم دارُ السلام عند ربِّهم﴾، ﴿وفيها ما تشتهيهِ الأنفسُ وتَلَذُّ الأعينُ﴾.

﴿٦﴾ ﴿عيناً يشربُ بها عبادُ اللهِ﴾؛ أي: ذٰلك الكأس اللذيذ الذي يشربونه لا يخافون نفاذه، بل له مادَّة لا تنقطع، وهي عينٌ دائمةُ الفيضان والجريان، يفجِّرها عباد الله تفجيراً أنَّى شاؤوا وكيف أرادوا؛ فإن شاؤوا؛ صرفوها إلى البساتين الزاهرات أو إلى الرياض النضرات، أو بين جوانب القصور والمساكن المزخرفات، أو إلى أيِّ جهةٍ يَرَوْنَها من الجهات المؤنِّقات.

﴿٧﴾ ثم ذكر جملةً من أعمالهم[٧]، فقال: ﴿يوفون بالنَّذْرِ﴾؛ أي: بما ألزموا به أنفسهم للَّه من النذور والمعاهدات، وإذا كانوا يوفون بالنذر الذي هو غير واجبٍ في الأصل عليهم[٨] إلا بإيجابهم على أنفسهم؛ كان فعلُهم وقيامهم بالفروض

---

(١) في (ب): «وهذا العذاب دائمٌ لهم أبداً». (٢) في (ب): «من محبة الله ومعرفته».
(٣) في (ب): «جوارحهم». (٤) في (ب): «أخبر».
(٥) في (ب): «بكافور».
(٦) في (ب): «فإن الآفة الموجودة في الأسماء التي ذكر الله أنها في الجنة وهي في الدنيا تعدم في الآخرة».
(٧) في (ب): «وقد ذكر جملة من أعمالهم في أول هذه السورة».
(٨) في (ب): «يوفون بالنذر وهو لم يجب عليهم».

الأصليَّة من باب أولى وأحرى، ﴿ويخافون يوماً كان شَرُّه مستطيراً﴾؛ أي: فاشياً منتشراً، فخافوا أن ينالهم شرُّه، فتركوا كلَّ سببٍ موجبٍ لذٰلك.

﴿٨ ـ ١٠﴾ ﴿ويطعِمونَ الطَّعامَ على حبِّه﴾؛ أي: وهم في حال يحبُّون فيها المال والطعام، لٰكنَّهم قدَّموا محبَّة الله على محبَّة نفوسهم، ويتحرَّوْن في إطعامهم أولى الناس وأحوجَهم، ﴿مسكيناً ويتيماً وأسيراً﴾: ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم وجهَ الله تعالى، ويقولون بلسان الحال: ﴿إنَّما نطعِمُكم لوجه الله لا نريدُ منكم جزاءً ولا شكوراً﴾؛ أي: لا جزاءً ماليًّا ولا ثناءً قوليًّا، ﴿إنا نخاف من ربِّنا يوماً عبوساً﴾؛ أي: شديد الجهمة والشرِّ، ﴿قمطريراً﴾؛ أي: ضنكاً ضيقاً.

﴿١١﴾ ﴿فوقاهُمُ اللهُ شرَّ ذٰلك اليوم﴾: فلا يحزنهم الفزعُ الأكبر، وتتلقَّاهم الملائكة هٰذا يومكم الذي كنتُم توعدون، ﴿ولَقَّاهُم﴾؛ أي: أكرمهم وأعطاهم ﴿نضرةً﴾: في وجوههم، ﴿وسروراً﴾: في قلوبهم، فجمع لهم بين نعيم الظَّاهر والباطن.

﴿١٢﴾ ﴿وجزاهم بما صبروا﴾: على طاعته[١] فعملوا ما أمكنهم منها، وعن معاصيه[٢] فتركوها، وعلى أقداره[٣] المؤلمة فلم يتسخَّطوها ﴿جنَّةً﴾: جامعةً لكلِّ نعيم سالمةً من كلِّ مكدِّرٍ ومنغِّص، ﴿وحريراً﴾؛ كما قال تعالى: ﴿ولباسُهم فيها حريرٌ﴾: ولعلَّ اللهَ إنَّما خصَّ الحريرَ لأنَّه لباسهم الظَّاهر الدالُّ على حال صاحبه.

﴿١٣﴾ ﴿متَّكئين فيها على الأرائكِ﴾: الاتِّكاء: التمكُّن من الجلوس في حال الطُّمأنينة والراحة والرَّفاهية[٤]، والأرائك هي السُّرُر التي عليها اللباس المزيَّن، ﴿لا يَرَوْن فيها﴾؛ أي: في الجنة ﴿شمساً﴾: يضرُّهم حرُّها، ﴿ولا زمهريراً﴾؛ أي: برداً شديداً، بل جميع أوقاتهم في ظلٍّ ظليلٍ، لا حرَّ ولا بردٌ؛ بحيث تلتذُّ به الأجساد ولا تتألَّم من حرٍّ ولا بردٍ.

﴿١٤﴾ ﴿ودانيةً عليهم ظِلالها وذُلِّلَتْ قطوفُها تذليلاً﴾؛ أي: قُرِّبَتْ ثمراتها من مريدها تقريباً، ينالها وهو قائمٌ أو[٥] قاعدٌ أو[٥] مضطجعٌ.

﴿١٥ ـ ١٦﴾ ﴿ويُطافُ عليهم﴾؛ أي: يدور الولدان والخدم على أهل الجنة[٦]،

---

(١) في (ب): «طاعة الله».
(٢) في (ب): «معاصي الله».
(٣) في (ب): «أقدار الله».
(٤) في (ب): «في حال الرفاهية والطمأنينة».
(٥) في (ب): «و».
(٦) في (ب): «﴿ويطاف﴾ على أهل الجنة؛ أي: يدور عليهم الخدم والولدان».

﴿بآنيةٍ من فضَّةٍ وأكوابٍ كانت قواريرَ. قواريرَ من فضَّةٍ﴾؛ أي: مادتها فضَّةٌ، وهي على صفاء القوارير، وهٰذا من أعجب الأشياء؛ أن تكون الفضَّةُ الكثيفة من صفاء جوهرها وطيب معدنها على صفاء القوارير، ﴿قدَّروها تَقْديراً﴾؛ أي: قدَّروا الأواني المذكورة على قدرِ رِيِّهم؛ لا تزيدُ ولا تنقصُ؛ لأنَّها لو زادت؛ نقصتْ لذَّتها، ولو نقصت؛ لم تكفِهِم لرِيِّهم[١]. ويُحتمل أنَّ المراد: قدَّرها أهلُ الجنة[٢] بمقدارٍ يوافقُ لذَّتَهم، فأتتْهم على ما قدَّروا في خواطرهم.

﴿١٧ ـ ١٨﴾ ﴿ويُسْقَوْنَ فيها﴾؛ أي: الجنة ﴿كأساً﴾: وهو الإناء [المملوء] من خمرٍ ورحيقٍ. ﴿كان مِزاجُها﴾؛ أي: خلطها ﴿زنجبيلاً﴾: ليطيب طعمُه وريحُه. ﴿عيناً فيها﴾؛ [أي: في الجنة] ﴿تسمّى سَلْسَبيلاً﴾: سمِّيت بذٰلك لسلاستها ولذَّتها وحسنها.

﴿١٩﴾ ﴿ويطوفُ﴾: على أهل الجنة في طعامهم وشرابهم وخدمتهم، ﴿ولدانٌ مخلَّدون﴾؛ أي: خلقوا من الجنة للبقاء؛ لا يتغيَّرون ولا يكبرون، وهم في غاية الحسن، ﴿إذا رأيتَهم﴾: منتشرين في خدمتهم، ﴿حسبتَهم﴾: من حسنهم ﴿لؤلؤاً منثوراً﴾: وهٰذا من تمام لذَّة أهل الجنة؛ أن يكون خُدَّامُهم الولدان المخلَّدون، الذين تَسُرُّ رؤيتُهم، ويدخُلون في مساكنهم آمنين من تَبِعَتِهم، ويأتونَهم بما يدَّعون وتطلُبُه نفوسُهم.

﴿٢٠﴾ ﴿وإذا رأيتَ ثَمَّ﴾؛ أي: رمقتَ ما أهل الجنة عليه[٣] من النعيم الكامل، ﴿رأيتَ نعيماً وملكاً كبيراً﴾: فتجد الواحد منهم عنده من [القصور و] المساكن والغرف المزيَّنة المزخرفة ما لا يدرِكُه الوصفُ، ولديه من البساتين الزاهرة والثِّمار الدَّانية والفواكه اللَّذيذة والأنهار الجارية والرِّياض المعجِبَة والطُّيور المطربة المُشْجِيَة، ما يأخُذُ بالقلوب ويُفْرِحُ النفوس، وعنده من الزَّوْجاتِ اللاَّتي هنَّ في غاية الحسن والإحسان الجامعات لجمال الظاهر والباطن الخَيِّراتِ الحسانِ، ما يملأ القلبَ سروراً ولذَّةً وحبوراً، وحوله من الوِلْدان المخلَّدين والخدم المؤبَّدين ما به تحصل الراحة والطُّمأنينة، وتتمُّ لَذَّة العيش وتكمل الغِبطة، ثم علاوة ذٰلك ومعظمه الفوز برضا[٤] الربِّ الرحيم وسماع خطابه ولَذَّة قربه والابتهاج برضاه والخلود الدائم، وتزايد ما هم فيه من النعيم كلَّ وقتٍ وحينٍ؛ فسبحان المالك الملك[٥] الحقِّ المُبين، الذي لا تَنْفَدُ

---

(١) في (ب): «لم تفِ بريِّهم».
(٢) في (ب): «قدرها أهل الجنة بنفوسهم».
(٣) في (ب): «أي: هناك في الجنة ورمقت ما هم فيه».
(٤) في (ب): «برؤية».
(٥) في (ب): «الملك المالك».

خزائنُه ولا يقلُّ خيرُه؛ كما[١] لا نهاية لأوصافِهِ؛ فلا نهايةَ لبرِّه وإحسانه.

﴿٢١﴾ ﴿عاليهم ثيابُ سندسٍ خضرٌ﴾؛ أي: قد جلَّلتهم ثياب السندس والإستبرق الأخضران اللَّذان هما أجَلُّ أنواع الحرير، فالسُّندس ما غلظ من الحرير، والإستبرقُ ما رقَّ منه، ﴿وحُلُّوا أساوِرَ من فضَّةٍ﴾؛ أي: حُلُّوا في أيديهم أساور الفضَّة؛ ذكورهم وإناثهم. وهٰذا وعدٌ وَعَدَهم الله، وكان وعدُه مفعولاً؛ لأنَّه لا أصدق منه قيلاً ولا حديثاً. وقوله: ﴿وسقاهم ربُّهم شراباً طهوراً﴾؛ أي: لا كدر فيه بوجهٍ من الوجوه، مطهراً لما في بطونهم من كلِّ أذىً وقذىً.

﴿٢٢﴾ ﴿[إنَّ] هٰذا﴾: الجزاء الجزيل [والعطاء الجميل] ﴿كان لكم جزاءً﴾: على ما أسلَفْتموه من الأعمال، ﴿وكان سعيُكم مشكوراً﴾؛ أي: القليل [منه] يجعل الله لكم به من النعيم [المقيم] ما لا يمكن حصره.

﴿٢٣﴾ وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة: ﴿إنَّا نحن نزَّلْنا عليك القرآن تنزيلاً﴾: فيه الوعد والوعيد وبيانُ كلِّ ما يحتاجه العباد، وفيه الأمر بالقيام بأوامره وشرائعه أتمَّ القيام والسعي في تنفيذها والصبر على ذٰلك.

﴿٢٤﴾ ولهٰذا قال: ﴿فاصبر لحكم ربِّكَ ولا تُطِعْ منهم آثماً أو كفوراً﴾؛ أي: اصبر لحكمه القدريِّ؛ فلا تسخطه، ولحكمه الدينيِّ؛ فامضِ عليه، ولا يعوقَنَّك عنه عائقٌ، ﴿ولا تطعْ﴾: من المعاندين الذين يريدونَ أن يَصُدُّوك ﴿آثماً﴾؛ أي: فاعلاً إثماً ومعصيةً، ﴿ولا كفوراً﴾: فإنَّ طاعة الكفَّار والفجَّار والفسَّاق لا بدَّ أن تكون معصيةً لله[٢]؛ فإنَّهم لا يأمرون إلَّا بما تهواه أنفسهم.

﴿٢٥﴾ ولما كان الصبر يُسْتَمَدُّ من القيام بطاعة الله[٣] والإكثار من ذِكْرِه؛ أمر[٤] الله بذٰلك، فقال: ﴿واذكُرِ اسمَ ربِّك بكرةً وأصيلاً﴾؛ أي: أول النهار وآخره، فدخل في ذٰلك الصلوات المكتوبات، وما يتبعها من النَّوافل والذِّكْر والتَّسبيح والتَّهليل والتَّكبير في هٰذه الأوقات.

﴿٢٦﴾ ﴿ومن الليل فاسجُدْ له﴾؛ أي: أكثر له من السُّجود، وذٰلك متضمِّن لكثرة الصلاة[٥]، ﴿وسبِّحْه ليلاً طويلاً﴾: وقد تقدَّم تقييد هٰذا المطلق بقوله: ﴿يا

---

(١) في (ب): «فكما».
(٢) في (ب): «لا بد أن تكون في المعاصي».
(٣) في (ب): «ولما كان الصبر يساعده القيام بعبادة الله».
(٤) في (ب): «أمره الله».
(٥) في (ب): «أي: أكثر من السجود، ولا يكون ذلك إلاَّ بالإكثار من الصلاة».

أيُّها المزَّمِّلُ. قم الليلَ إلَّا قليلاً. نِصْفَهُ أو انقُصْ منه قليلاً. أو زِدْ عليه...﴾.

﴿٢٧﴾ وقوله: ﴿إنَّ هٰؤلاء﴾؛ أي: المكَذِّبين لك أيها الرسول بعدما بُيِّنَتْ لهم الآيات ورُغِّبوا ورُهِّبوا، ومع ذٰلك لم يُفِدْ فيهم ذٰلك شيئاً، بل لا يزالون يُؤْثرون ﴿العاجلةَ﴾: ويطمئنُّون إليها، ﴿ويذرونَ﴾؛ أي: يتركون العمل ويهملون ﴿وراءهم﴾؛ أي: أمامهم ﴿يوماً ثقيلاً﴾: وهو يوم القيامةِ، الذي مقداره خمسون ألفَ سنةٍ ممَّا تعدُّون، وقال تعالى: ﴿يقولُ الكافرون هٰذا يومٌ عَسِرٌ﴾؛ فكأنَّهم ما خُلِقوا إلَّا للدُّنيا والإقامة فيها.

﴿٢٨﴾ ثم استدلَّ عليهم وعلى بعثهم بدليل عقليٍّ، وهو دليلُ الابتداء، فقال: ﴿نحن خَلَقْناهم﴾؛ أي: أوجدناهم من العدم، ﴿وشَدَدْنا أسْرَهم﴾؛ أي: أحكمنا خِلْقَتَهم بالأعصاب والعروق والأوتار والقُوى الظاهرة والباطنة، حتى تمَّ الجسم واستكمل وتمكَّن من كلِّ ما يريده؛ فالذي أوجدهم على هٰذه الحالة قادرٌ على أن يعيدَهم بعد موتهم لجزائهم، والذي نقَّلهم في هٰذه الدار إلى هٰذه الأطوار لا يَليقُ به أن يَتْرُكَهم سدىً، لا يُؤْمَرون، ولا يُنْهَوْن، ولا يُثابون، ولا يُعاقبون، ولهٰذا قال: ﴿وإذا شِئْنا بَدَّلْنا أمثالَهم تَبْديلاً﴾؛ أي: أنشأناكم للبعث نشأةً أخرى، وأعدْناكم بأعيانكم، وهم بأنفسهم أمثالهم.

﴿٢٩﴾ ﴿إنَّ هٰذه تذكرةٌ﴾؛ أي: يتذكَّر بها المؤمن، فينتفع بما فيها من التخويف والترغيب، ﴿فمَن شاءَ اتَّخَذَ إلى ربِّه سَبيلاً﴾؛ أي: طريقاً موصلاً إليه؛ فالله يبيِّن الحقَّ والهدى، ثم يخيِّر الناس بين الاهتداء بها أو النُّفور عنها؛ إقامةً للحُجَّة[1]؛ ليهلكَ من هَلَكَ عن بيِّنةٍ، ويحيا من حيَّ عن بينةٍ.

﴿٣٠﴾ ﴿وما تشاؤون إلَّا أن يشاءَ اللهُ﴾: فإنَّ مشيئة الله نافذةٌ. ﴿إنَّ الله كان عليماً حكيماً﴾: فله الحكمةُ في هداية المهتدي وإضلال الضالِّ.

﴿٣١﴾ ﴿يُدْخِلُ مَن يشاءُ في رحمتِهِ﴾: فيختصُّه بعنايته، ويوفِّقه لأسباب السعادة، ويهديه لطُرُقِها، ﴿والظَّالمين﴾: الذين اختاروا الشقاء على الهدى، ﴿أعدَّ لهم عذاباً أليماً﴾: بظلمهم وعدوانهم.

تمت. ولله الحمد[2].

❁ ❁ ❁

(١) في (ب): «مع قيام الحجة».

(٢) في (ب): «تمَّ تفسير سورة الإنسان. ولله الحمد والمنة».

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ۝١ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ۝٢ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ۝٣ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ۝٤ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ۝٧ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ۝٨ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ۝٩ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ۝١٠ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ۝١١ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ۝١٢ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ۝١٣ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۝١٤ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١٥﴾.

﴿١ ـ ٦﴾ أقسم تعالى على البعث والجزاء على الأعمال بـ ﴿المُرْسَلات عُرْفاً﴾: وهي الملائكةُ التي يرسِلُها الله تعالى بشؤونه القدريَّة وتدبير العالم، وبشؤونه الشرعيَّة ووحيه إلى رسله، و ﴿عُرْفاً﴾: حال من المرسلات؛ أي: أرسلت بالعُرْف والحكمة والمصلحة، لا بالنُّكر والعبث. ﴿فالعاصفاتِ عصفاً﴾: وهي أيضاً الملائكة التي يرسِلُها الله تعالى، وَصَفَها بالمبادرة لأمره وسرعة تنفيذ أوامره كالريح العاصف أو أنَّ العاصفات الرياح الشديدة التي يُسْرِعُ هبوبها، ﴿والناشرات نشراً﴾: يُحتمل أنَّ المراد بها الملائكة[٢]؛ تنشر ما دُبِّرت على نشره، أو أنَّها السحاب التي يَنْشُرُ الله بها الأرض فيحييها بعد موتها. ﴿فالمُلْقِياتِ ذِكْراً﴾: هي الملائكة تلقي أشرفَ الأوامر، وهو الذِّكْرُ الذي يرحم الله به عباده، ويذكِّرهم فيه منافعهم ومصالحهم؛ تلقيه إلى الرسل ﴿عُذْراً أو نُذْراً﴾؛ أي: إعذاراً وإنذاراً للناس؛ تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف وتقطَعُ أعذارهم[٣]؛ فلا يكون لهم حُجَّةٌ على الله.

﴿٧﴾ ﴿إنَّما توعَدون﴾: من البعث والجزاء على الأعمال ﴿لَواقِعٌ﴾؛ أي: متحتِّم وقوعه من غير شكٍّ ولا ارتياب.

﴿٨ ـ ١٤﴾ فإذا وقع؛ حصل من التغيُّر[٤] للعالم والأهوال الشَّديدة ما يزعج القلوبَ وتشتدُّ له الكروب فتنطمس النُّجوم؛ أي: تتناثر وتزول عن أماكِنِها، وتُنْسَفُ الجبال، فتكون كالهباء المنثور، وتكون هي والأرض قاعاً صفصفاً، لا ترى فيها

---

(١) في (أ): «إلى قوله: ﴿ويل يومئذ للمكذبين﴾. وفي (ب): ذكر الآيات.
(٢) في (ب): «يحتمل أنها الملائكة». (٣) في (ب): «معذرتهم».
(٤) في (ب): «التغيير».

عوجاً ولا أمتاً، وذٰلك اليوم هو اليوم الذي ﴿أُقِّتَتْ﴾ فيه الرسل، وأُجِّلَتْ للحكم بينها وبين أممها، ولهٰذا قال: ﴿لأيِّ يوم أُجِّلَتْ﴾: استفهامٌ للتعظيم والتفخيم والتهويل، ثم أجاب بقوله: ﴿ليوم الفصل﴾؛ أي: بين الخلائق بعضهم من بعض، وحساب كلٍّ منهم منفرداً.

﴿١٥﴾ ثم توعَّد المكذِّب بهٰذا اليوم، فقال: ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبينَ﴾؛ أي: يا حسرتهم وشدَّة عذابهم وسوءَ منقلبهم، أخبرهم الله وأقسم لهم فلم يصدقوه؛ فلذٰلك استحقُّوا[1] العقوبة البليغةَ.

﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾﴾.

﴿١٦ ـ ١٩﴾ أي: أما أهلكنا المكذِّبين السابقين، ثم نتبعهم بإهلاك من كَذَّب من الآخرين، وهٰذه سنَّتُه السابقة واللاحقة في كلِّ مجرم، لا بدَّ من عقابه[2]، فلِمَ لا تعتبرون بما ترون وتسمعون؟! ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: بعدما شاهدوا من الآيات البينات والعقوباتِ والمَثُلات.

﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿٢٠ ـ ٢٤﴾ أي: أما خلقناكم أيُّها الآدميُّون ﴿من ماءٍ مَهينٍ﴾؛ أي: في غاية الحقارة، خرج من بين الصُّلب والتَّرائب، حتى جعله الله ﴿في قرارٍ مَكينٍ﴾: وهو الرحم به يستقرُّ وينمو، ﴿إلى قدرٍ معلومٍ﴾: ووقتٍ مقدَّرٍ. ﴿فقَدَرْنا﴾؛ أي: قدَّرنا ودَبَّرنا ذٰلك الجنين في تلك الظُّلمات، ونقلناه من النُّطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى أن جعله الله جسداً و[3]نفخ فيه الروح، ومنهم من يموت قبل ذٰلك. ﴿فنعم القادِرونَ﴾؛ يعني بذٰلك نفسه المقدَّسة؛ لأنَّ قَدَرَه تابعٌ لحكمته موافقٌ للحمد[4]. ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبينَ﴾، [بعد ما بَيَّن اللّٰهُ لهم الآياتِ وأراهم العبَر والبيِّناتِ].

---

(١) في (ب): «فاستحقوا».
(٢) في (ب): «عذابه».
(٣) في (ب): «ثم».
(٤) في (ب): «حيث كان قدراً تابعاً للحكمة وموافقاً للحمد».

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿٢٥ ـ ٢٨﴾ أي: أما مَنَنَّا[1] عليكم وأنعمنا بتسخير الأرض لمصالحكم فجعلناها ﴿كفاتاً﴾: لكم، ﴿أحياءً﴾: في الدور، ﴿وأمواتاً﴾: في القبور؛ فكما أنَّ الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنَّته؛ فكذلك القبور رحمة في حقِّهم وسترٌ لهم عن كون أجسادهم بادية للسِّباع وغيرها. ﴿وجعلنا فيها رواسيَ﴾؛ أي: جبالاً ترسي الأرض لئلاَّ تميدَ بأهلها، فثبَّتها الله بالجبال الراسيات الشامخات؛ أي: الطوال العراض. ﴿وأسقَيناكم ماءً فُراتاً﴾؛ أي: عذباً زلالاً؛ قال تعالى: ﴿أفرأيْتُم الماءَ الذي تشربونَ. أأنتُم أنزَلْتُموه من المُزْنِ أمْ نحنُ المنزِلونَ. لو نشاءُ جعلناه أُجاجاً فلولا تَشْكُرونَ﴾. ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: مع ما أراهم الله من النعم التي انفرد بها، واختصَّهم بها فقابلوها بالتكذيب.

﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿٢٩ ـ ٣٤﴾ هٰذا من الويل الذي أُعِدَّ للمجرمين المكذِّبين أنْ يقال لهم يوم القيامةِ: ﴿انطَلِقوا إلى ما كُنتُم به تكذِّبونَ﴾: ثم فسَّر ذٰلك بقوله: ﴿انطَلِقوا إلى ظِلِّ ذي ثلاثِ شُعَبٍ﴾؛ أي: إلى ظلِّ نار جهنَّم التي[2] تتمايز في خلاله ثلاث شعب؛ أي: قطع من النار تتعاوره[3] وتتناوبه وتجتمع به. ﴿لا ظليلٍ﴾: ذٰلك الظلُّ؛ أي: لا راحة فيه ولا طمأنينة، ﴿ولا يُغني﴾: من مَكَثَ فيه ﴿من اللَّهب﴾: بل اللهب قد أحاط به يمنةً ويسرةً ومن كلِّ جانب؛ كما قال تعالى: ﴿لهم من فوقهم ظُلَلٌ من النار ومن تحتِهم ظُلَلٌ﴾، ﴿لهم من جَهنَّمَ مهادٌ ومن فوقِهم غواشٍ وكذٰلك نجزي الظَّالمينَ﴾.

ثم ذكر عِظَمَ شرر النار الدالَّ على عظمها وفظاعتها وسوء منظرها، فقال: ﴿إنها تَرْمي بشررٍ كالقَصْر. كأنَّه جِمالةٌ صُفْرٌ﴾: وهي السود التي تضرب إلى لونٍ فيه صفرة، وهٰذا يدلُّ على أن النار مظلمة لهبها وجمرها وشررها، وأنها سوداءُ كريهةُ

---

(١) في (ب): «أما آمتنَّا».
(٢) في (ب): «الذي».
(٣) في (ب): «أي: تتعاوره».

المنظر[١] شديدةُ الحرارة؛ نسأل الله العافية منها، ومن الأعمال المقرِّبة منها. ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾.

﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿٣٥ ـ ٣٧﴾ أي: هٰذا اليوم العظيم الشَّديد على المكذِّبين، لا ينطِقون فيه من الخوف والوَجَل الشديد، ﴿ولا يُؤْذَنُ لهم فيعتَذِرون﴾؛ أي: لا تُقبل معذرتُهم ولو اعتذروا. ﴿فيومئذٍ لا ينفع الذينَ ظَلَموا معذِرَتُهم ولا هم يُسْتَعْتَبونَ﴾.

﴿٣٨ ـ ٤٠﴾ ﴿هٰذا يومُ الفصل جَمَعْناكم والأوَّلينَ﴾: لنفصل بينَكم ونحكُمَ بين الخلائق. ﴿فإن كانَ لكم كيدٌ﴾: تقدِرون على الخروج عن ملكي وتَنْجونَ به من عذابي، ﴿فكيدونِ﴾؛ أي: ليس لكم قدرةٌ ولا سلطانٌ؛ كما قال تعالى: ﴿يا معشرَ الجنِّ والإنسِ إنِ اسْتَطَعْتُم أن تنفُذوا من أقطارِ السمٰواتِ والأرضِ فانفُذوا، لا تَنفُذون إلَّا بسلطانٍ﴾؛ ففي ذٰلك اليوم تبطُل حيل الظالمين، ويضمحلُّ مكرُهم وكيدُهم ويستسلمون لعذابِ الله، ويبين لهم كذِبُهم في تكذيبهم. ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿٤١ ـ ٤٥﴾ لمَّا ذكر عقوبة المكذِّبين؛ ذكر مثوبة[٢] المحسنين، فقال: ﴿إنَّ المتَّقين﴾؛ أي: للتكذيب، المتَّصفين بالتَّصديق في أقوالهم وأفعالهم وأعمالهم، ولا يكونون كذٰلك إلَّا بأدائهم الواجبات وتركهم المحرَّمات، ﴿في ظلالٍ﴾: من كثرة الأشجار المتنوِّعة الزاهرة[٣] البهيَّة، ﴿وعيونٍ﴾: جاريةٍ من السلسبيل والرحيق وغيرهما، ﴿وفواكهَ ممَّا يشتهونَ﴾؛ أي: من خيار الفواكه وأطيبها[٤]، ويقال لهم: ﴿كُلوا واشْرَبوا﴾: من المآكل الشهيَّة والأشربة اللَّذيذة، ﴿هنيئاً﴾؛ أي: من غير منغِّص ولا مكدِّر، ولا يتمُّ هناؤه حتى يسلمَ الطعام والشرابُ من كلِّ آفةٍ ونقصٍ،

---

(١) في (ب): «كريهة المرأى».
(٢) في (ب): «ثواب».
(٣) في (ب): «الزاهية».
(٤) في (ب): «وطيبها».

وحتى يجزموا أنَّه غيرُ منقطع ولا زائل؛ ﴿بما كنتُم تعملونَ﴾: فأعمالكم هي السبب الموصل لكم إلى جنَّات النعيم[١] المقيم، وهٰكذا كلُّ من أحسن في عبادة الله وأحسن إلى عباد الله، ولهٰذا قال: ﴿إنَّا كذٰلك نجزي المحسِنينَ. ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: ولو لم يكن من هٰذا الويل إلَّا فوات هٰذا النعيم؛ لكفى به حزناً وحرماناً[٢].

﴿كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿٤٦ ـ ٥٠﴾ هٰذا تهديدٌ ووعيدٌ للمكذِّبين أنَّهم وإن أكلوا في الدُّنيا وشربوا وتمتَّعوا باللَّذَّات وغفلوا عن القُرُبات؛ فإنَّهم مجرمون يستحقُّون ما يستحقُّه المجرمون، فتنقطع عنهم اللَّذَّات، وتبقى عليهم التَّبِعات. ومن إجرامهم أنَّهم إذا أمِروا بالصَّلاة التي هي أشرف العبادات، و﴿قيل لهم اركعوا﴾: امتنعوا من ذٰلك؛ فأيُّ إجرام فوق هٰذا؟ وأيُّ تكذيب يزيد على هٰذا؟ ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذِّبين﴾: ومن الويل عليهم أنَّهم تنسدُّ عنهم[٣] أبواب التوفيق ويُحْرَمون كلَّ خيرٍ؛ فإنَّهم إذا كذَّبوا هٰذا القرآن الذي هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق؛ ﴿فبأيِّ حديثٍ بعدَه يؤمنونَ﴾: أبالباطل الذي هو كاسمه لا يقوم عليه شبهةٌ فضلاً عن الدليل؟ أم بكلام[٤] مشركٍ كذَّابٍ أفَّاكٍ مبينٍ؟ فليس بعد النُّور المبين إلَّا دياجي الظلمات، ولا بعد الصدق الذي قامت الأدلة والبراهين القاطعة إلَّا الإفك الصراح والكذب المبينُ[٥] الذي لا يَليقُ إلَّا بمن يناسبه؛ فتبًّا لهم ما أعماهم! وويحاً لهم ما أخسرهم وأشقاهم! نسأل الله العفو والعافية؛ إنَّه جوادٌ كريمٌ.

تمت.

❁ ❁ ❁

---

(١) في (ب): «إلى هذا النعيم».
(٢) في (ب): «حرماناً وخسراناً».
(٣) في (ب): «عليهم».
(٤) في (ب): «بكلام كلٍّ».
(٥) في (ب): «قامت الأدلة والبراهين على صدقه إلا الكذب الصراح والإفك المبين».